

سورة

الحجرات

دراسة تحليلية وموضوعية

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وهدانا إلى سواء السبيل.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأعراف: ٤٣).

وصلى الله وسلم، وبارك على سيدنا، ومولانا محمد، رسول الله، وخيرته من خلقه، أرسله ربه للناس كافة، بشيرًا، ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك. فاغفر لنا وارحمنا، وتب علينا؛ إنك أنت التواب الرحيم.

ربنا واجعلنا مسلمين لك، وافين لك بالميثاق الذي أخذته علينا؛ أن نكون قوامين بالقسط شهداء على الناس.

ربنا واهدنا صراطك المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والشهداء والصديقين.

ربنا واجعلنا من الذين علموا أنك أنت الجبار، الذي خضعت لجبروته الجبابة، والعزيز الذي خلق الكون بقدرته، وأخضع الطغاة بعزه وعظمته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وبعد:

فإن القرآن الكريم، كتاب الله الخالد، الذي أنزله على الثقلين - الإنس والجن - هاديًا ومشرِّعًا، فيه علم الأولين والآخرين، وقد أولاه السلف الصالح، بمزيد من العناية والاهتمام، ومن ذلك: شرح ألفاظه، وبيان معانيه، وقد ظهر في العصر الحاضر منهج جديد في تفسيره،

هو: «التفسير الموضوعي» فأعجب له العلماء، والباحثون، والدارسون، قدم فيه الكثير من موضوعات القرآن، وعلومه، ومعانيه، وحقائقه، وصدرت عنه دراسات عديدة، تلقّاها الباحثون، والدارسون بحيوية، وتفاعل<sup>(١)</sup>.

إذا أردنا تبيان «التفسير الموضوعي» فإن كلمة: «الموضوعي» في اللغة جاءت من الوضع، وهو: جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان.

وقيل: «وضعت، تضع، وضیعة، فهي واضحة. وكذلك موضوعه، يتعدى ولا يتعدى<sup>(٢)</sup>. وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي؛ لأنه تفسير الموضوع الذي التزم به».

وفي الاصطلاح: «تفسير قضية أو أمرٍ متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة، أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون التي تعرّضت لها آيات القرآن الكريم».

والتفسير الموضوعي لم يعرف هذا الاسم إلا في عصرنا الحاضر، وقد قدم العلماء الكثير من التعريفات لهذا العلم... فقد عرفه بعضهم بأنه: جمع الآيات المتفرقة من سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

وقال بعضهم: «هو بيان موضوع ما، من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة، أو سور متعددة».

---

(١) «التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق» للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص ٥.

(٢) راجع: «المدخل إلى التفسير الموضوعي» للدكتور عبد الستار سعيد صفحة ٢٠، ٢٣.

وقيل: «هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحددة معنى وغاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة؛ لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع»<sup>(١)</sup>.

وقد كان هذا التفسير معروفاً في الصدر الأول للإسلام، وقد سئل الرسول ﷺ عن تفسير بعض الآيات التي تتضمن معنى واحداً، من ذلك ما رواه الإمام البخاري - رحمه الله -<sup>(٢)</sup>: أن رسول الله ﷺ فسَّرَ: «مفاتيح الغيب» في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ (الأنعام: ٥٩).

فقال: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾». (لقمان: ٣٤).

وهذا ما يسمى بتفسير القرآن الكريم بالقرآن.

ومن هذا القبيل أيضاً: ما كان يلجأ إليه الصحابة - رضوان الله عليهم - من الجمع بين الآيات القرآنية، التي يظن فيها التعارض، كما روى البخاري، قال: قال المنهال عن سعيد بن جبير، قال: قال رجل لابن عباس - رضي الله عنهما - : «إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ. قال: ما هي؟ قال: قول الله تعالى:

﴿... فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١).

---

(١) راجع: «دراسات في التفسير الموضوعي» للدكتور زاهر الألمي ص ٧، نقلاً عن كتاب: «مباحث في التفسير

الموضوعي» للدكتور مصطفى مسلم ص ١٦.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٦٢٧).

وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الصافات: ٢٧)، و(الطور: ٢٥) ﴿... وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. (النساء: ٤٢) ﴿... وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣) فقد كنتموا في هذه الآية. وقال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ حَلْفًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. (النازعات: ٢٧ - ٣٠).

فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ٩ - ١١).

فذكر في هذه، خلق الأرض قبل خلق السماء.

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحيها، أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال، والرمال، والجماد، والأكام، وما بينهما في يومين آخرين. فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾<sup>(١)</sup>.

ثم جمع بعض الفقهاء الآيات ذات الصلة بموضوع واحد، واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها كآيات الخاصة بالصلاة، والصدقات، والحج، والصوم، وغير ذلك.

وكل ذلك يُعدُّ لونا من ألوان التفسير الموضوعي في خطواته الأولى يقول الدكتور مصطفى مسلم: «وقد أخذت هذه الدراسات الموضوعية، اتجاه آخر في نفس الوقت، وهو الاتجاه اللغوي؛ وذلك بتتبع اللفظة القرآنية، ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة».

ثم يقدم لنا ثبوتا لبعض المؤلفات والمصنفات التي قام بتحجيرها العلماء بدءاً من منتصف القرن الثاني الهجري إلى بداية عصر الجمود.

وأهم الكتب المؤلفة في التفسير الموضوعي:

---

(١) صحيح البخاري، سورة فصلت، (٥٥٥/٨) (فتح).

١- كتاب: «الأشباه والنظائر في القرآن الكريم» لمقاتل بن سليمان البلخي، المتوفى سنة ١٥٠هـ، ذكر فيه: الكلمات التي اتحدت في اللفظ، واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

٢- كتاب: «التصارييف» ليحيى بن سلام، المتوفى سنة ٢٠٠هـ وهو يُعدُّ تفسيراً لبعض آيات القرآن الكريم التي تشابهت أسماؤها، وتصرفت معانيها.

٣- كتاب: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢هـ تتبع فيه مادة الكلمة القرآنية، وبيّن دلالاتها في مختلف الآيات.

يقول: «وألفاظ القرآن، هي لبُّ كلام العرب، وزيدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء، والحكماء في أحكامهم، وحكمهم، وعليها مفرع حذاق الشعراء، والبلغاء، في نظمهم، ونثرهم»<sup>(١)</sup>.

٤- كتاب: «نزهة الأعين النواضر في علم الوجوه والنظائر» لابن الجوزي، المتوفى سنة ٥٩٧هـ.

٥- كتاب: «إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» للدماغاني، المتوفى سنة ٤٧٨هـ.

٦- كتاب: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، للفيروز آبادي، المتوفى سنة ٨١٧هـ<sup>(٢)</sup>.

---

(١) راجع: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة، دار المنار، القاهرة.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي، ص ٢٠

٧- كتاب «كشف السرائر في معنى الوجوه والنظائر» لابن العماد، المتوفى سنة ٨٨٧

هـ. يقول الدكتور مصطفى مسلم:

«وقد ظهرت كتب أخرى من التفسير، كان موضوعها: الجمع بين الآيات التي ترتبط بموضوع واحد أو يمكن أن تدخل تحت مظلة عنوان واحد، ثم حبرت براعة العلماء مصنفات أخرى جمع أصحابها من كتاب الله تعالى، ما يتضمنه عنوان الكتاب الذي يريدون تأليفه»<sup>(١)</sup>.  
وقد التزمنا هذا المفهوم للتفسير الموضوعي في تناولنا لتفسير سورة الحجرات، وقارناً بين ما جاء فيها من موضوعات، وما يناظر تلك الموضوعات في القرآن الكريم، وحاولنا أن نبين العلاقات، والفروق بين الآيات المتشابهة لفظاً، ومعنى.

يقول الرسول ﷺ: «إن الله أعطاني السبع الطؤل مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان

الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل»<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (سورة الحجر: آية

٨٧).

قال قوم: هي الفاتحة. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «السبع الطوال: البقرة،

وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال والتوبة معاً، إذ ليس بينهما التسمية.

وسُمِّيَتْ مثاني؛ لأن العبر، والأحكام، والحدود ثنيت فيها.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١٠٧/٤ والطبري ١٠٠/١ عن واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - من طريق أبي داود الطيالسي، عن أبي العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عنه مرفوعاً، وإسناده صحيح، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٨/٧.

والمفصل من سورة محمد ﷺ إلى آخر كتاب الله تعالى، وُسِّمَتْ مفصلاً؛ لقصرها، وكثرة  
الفصول فيها، والأكثر من على أن المفصل من سورة الحجرات»<sup>(١)</sup>.

فسورة الحجرات من المفصل، وآياتها لا تتجاوز ثماني عشرة آية.

وأول ما يلفت النظر في هذه السورة القصيرة: أنها تتضمن القواعد والأصول، والمبادئ  
والمناهج التي يركز عليها المجتمع الإسلامي الكبير ويقوم بها، والمجتمع الإنساني بعامة من  
أجل أن يكون عاملاً نظيف المشاعر، طاهر السرائر، قوي الإيمان، له أدب مع الله تعالى فلا  
يجور، ولا ينافق.

وله أدب مع الرسول ﷺ، فلا يتقدم عليه بالقول أو الفعل، ولا يجهر له بالقول.  
ويتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد مع الرب، ومع الرسول ﷺ الذي يبلغ عن  
الرب.

يقول الإمام الفيروز آبادي عن أهداف سورة الحجرات:

«المحافظة على أمر الحق تعالى، ومراعاة حرمة الأكابر، والتؤدة في الأمور، واجتناب  
التهور، والنجدة في إغاثة المظلوم، والاحتراز عن السخرية بالخلق، والحذر من التجسس  
والغيبية، وترك الفخر بالأحساب والأنساب، والتحاشي عن المنّة على الله بالطاعة»<sup>(٢)</sup>.

وقد جعل الأستاذ الدكتور عبد الله شحاتة حديثه عن تلك السورة بعنوان: «منهج

حياة»، فقال:

---

(١) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني ٢١٢/٥.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٤٣٥/١.



«سورة الحجرات يمكن أن تكون دائرة معارف شاملة؛ لتربية الفرد، وتهذيب الجماعة، فهي تقدم منهجًا للحياة السليمة، ونظامًا تربويًا، ناجحًا لمخلوق صالح، مؤمن بربه، يحترم دينه، ويؤدي شعائره».

وقد جاء في كتاب «في ظلال القرآن» عن سورة الحجرات:

«هذه سورة جليلة، ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة، من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقًا عالية، وآمادًا بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة، ومعاني كبيرة، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها، وعدد آياتها مئات المرات. وهي تُبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبير والتفكير. وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة، أنها تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع، كريم، نظيف، سليم، متضمنة القواعد والأصول، والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم، والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانتَه أخيراً، عالمٌ يصدر عن الله، ويتجه إلى الله، ويليق أن ينتسب إلى الله، عالمٌ نقي القلب نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة، عالمٌ له أدب مع الله، وأدب مع رسوله ﷺ، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي نظمه التي تكفل صيانتَه، وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتنسق معه، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه، وهو يتجه ويتحرك إلى الله، ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم، النظيف السليم، وصيانتَه، لمجرد أدب الضمير، ونظافة الشعور، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم، بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق، كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده، كما لا يترك لنظم الدولة

وإجراءاتها، بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة، والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتهما، ونشاطهما، في تعاون، واتساق»<sup>(١)</sup>.

ويشمل البحث: المقدمة، والموضوعات الآتية:

- ١- الموضوع الأول: التزام المؤمنين بما أمر به الله ورسوله ﷺ من قول أو فعل.
- ٢- الموضوع الثاني: التقوى.
- ٣- الموضوع الثالث: الأدب الشامل مع الله تعالى ورسوله ﷺ، والناس أجمعين.
- ٤- الموضوع الرابع: تبين صحة الأخبار.
- ٥- الموضوع الخامس: أخوة المؤمنين، والإصلاح بينهم.
- ٦- الموضوع السادس: حقيقة الإسلام والإيمان.
- ٧- الموضوع السابع: الأخوة الإنسانية.

---

(١) «في ظلال القرآن»، سيد قطب ٦/٣٣٣٥.

## الموضوع الأول

التزام المؤمنين بما أمر به الله والرسول ﷺ في القول والفعل

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ (سورة

الحجرات: آية ١)

وذلك أننا لا نقدم قولاً حتى نعلم قول الله - عز وجل - ورسوله ﷺ فيما يتصل به ويخصه، ولا نسارع في الحكم على الأشياء، أو المواقف بين يدي الله ورسوله، بل نكون تبعاً، ولا نقضي قضاءً، ولا نحكم بحكم حتى نعلم قضاء الله ورسوله، وحكم الله ورسوله ﷺ.

يقول الفخر الرازي:

«لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجاتكم، وإحباط حسناتكم، فلا تقدّموا: أي لا تُقدّموا

أمراً وفعلاً، وأنتم بحضرة من الله تعالى، وهو ناظر إليكم»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لا

تُقدّموا بين يدي الله ورسوله ﷺ: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة».

وقال العوفي: «هُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه».

وقال مجاهد: «لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضي الله تعالى على

لسانه».

وقال الضحاك: «لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم»<sup>(٢)</sup>.

---

(١) التفسير الكبير (١١/٢٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٢٠).

لهذا يجب على عباد الله أن يلتزموا بأوامر الله، الذي هداهم للإيمان، وحببه في قلوبهم،  
وكرهه إليهم الكفر، والفسوق، والعصيان.

وفي الآية: أدب دائم مع الله - تعالى - وحثُّ دائم على مراقبة الله - عز وجل -  
وخشيته في السر والعلن؛ إذ هو - سبحانه - بصير بما تعمل.

وأدب مع رسول الله ﷺ فلا نتقدم بين يديه بأمر، ولا نفعل شيئاً يخالف سنته، ولا  
نرفع صوتاً فوق صوته، ولا نقدّم شرعاً على شرعه - صلوات الله وسلامه عليه.

قال النسفي: «وفي هذه الآية تمثيل، وفيه فائدة جليلة، هي تصوير المهجنة والشناعة

فيما نُهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور، دون الاقتداء بما جاء في الكتاب والسنة»<sup>(١)</sup>.

ومن أشنع أنواع التقديم: ما يحدث في عالمنا المعاصر، من تقديم القوانين الوضعية  
والدساتير الأرضية على شرع الله وكتابه، أو العمل بالضعيف من الأحاديث، وترك العمل  
بالحسن، أو الصحيح.

ويظن بعض الناس أن تقدم القوانين الوضعية المخالفة للكتاب والسنة، لا يخرج عن  
كونها معصية يكفرها الصوم والصلاة، ولا تخرج صاحبها من الإسلام.

ويوضح الإمام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك بقوله: «فالإسلام يتضمن الاستسلام لله  
وحده، فمن أستسلم له ولغيره - كان مشركاً، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته.  
والمشرك به، والمستكبر عن عبادته كافر.

والاستسلام له وحده، يتضمن: عبادته وحده، وطاعته وحده، وهذا دين الإسلام الذي  
لا يقبل الله غيره، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت، وذلك بفعل العبد ما أمره الله

---

(١) تفسير النسفي (٤/١٦١).

به»(١).

ويقول: «هذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره».

كما قال - عز وجل - : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: آية ٨٥).

وإذا كنا نؤمن بأن التقدم بين يدي الله ورسوله يتناول كل شيء من أمور الحياة، فأمامنا قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: آية ٤٤).

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة، آية ٤٥).

فالحكم الصحيح هو الذي شرعه الله ووضع قواعده وأصوله؛ فلا نقدم عليه شرعاً غيره، يقول تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، آية ٤٠).

إن الذي ينبجى شريعة الله عن الحكم، ويستمد القوانين من مصدر آخر، هو من أسوأ التقدم بين يدي الله ورسوله، ومنازعة الله في حكمه، وهذا التقديم والمنازعة تخرج صاحبها من دين الله، ليس هذا فحسب، بل وكذلك الذين يقررون المنازع على ادعائه، ويدينون له بالطاعة والولاء وقلوبهم غير منكرا لتقديم هذا الدعي بين يدي الله ورسوله، واغتصابه سلطان الله وخصائصه، فكلهم في ميزان الله سواء».

يقول الله تعالى في هذا المعنى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ

---

(١) التدمرية، ص (١٦٩).

تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿النساء﴾ (الآيات: ٥٩ - ٦٥).

يقول البغوي: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ﴿اختلفوا في «أولي الأمر»﴾، قال ابن عباس وجابر - رضي الله عنهم -: «هم الفقهاء والعلماء، الذين يعلمون الناس معالم دينهم»، وهو قول الحسن، والضحاك، ومجاهد، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ﴿النساء: ٨٣﴾.

وقال أبو هريرة: «هم الأمراء، والولاة».

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «حَقُّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَيُؤَدِّي الْأَمَانَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ عَلَى الرِّعْيَةِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيَطِيعُوا».

قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ﴿في شيء﴾ من أمر دينكم، والتنازع: اختلاف الآراء، وأصله من النزاع، فكأن المتنازعين يتجادبان، ويتمانعان ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: إلى كتاب الله، وإلى رسوله ﷺ ما دام حيًّا، وبعد وفاته إلى سنته، والرد إلى

الكتاب والسنة واجب، إن وجد فيهما، فإن لم يوجد فسبيله الاجتهاد، وقيل: الرد إلى الله تعالى والرسول، أن يقول لما لا يعلم: الله ورسوله أعلم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله والرسول ﴿حَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن مآلاً وعاقبة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ...﴾ الآية، قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فقال اليهودي: «نتحاكم إلى محمد»؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة وكان المنافق يدعو إلى اليهود؛ لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهنًا في جُهينة، فيتحاكما إليه، فنزلت هذه الآية<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ أي: يعرضون عنك إعراضًا<sup>(٢)</sup>.

يقول العلامة الشيخ ابن عثيمين: «ومن التقدم بين يدي الله ورسوله: البدع بجميع أنواعها؛ فإنها تقدم بين يدي الله ورسوله، بل هي أشد التقدم؛ لأن النبي ﷺ قال: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، وإياكم ومحدثات الأمور». وأخبر بأن: «كل بدعة ضلالة». <sup>(٣)</sup> وصدق - عليه الصلاة والسلام - فإن حقيقة حال المبتدع أنه يستدرك على الله ورسوله ما فات، مما يدَّعي أنه شرع، كأنه يقول: إن الشريعة لم تكمل، وأنه

(١) أخرجه الواحدي بسنده عن الشعبي في: «أسباب النزول» ص ١٥٤

(٢) مختصر تفسير البغوي ١/١٨٠.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧) والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة و اجتناب البدع (٢٦٧٦) وابن ماجه، المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٢) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

كَمَّلَهَا بِمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ، وَهَذَا مُعَارِضٌ تَمَامًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع: أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال: نعم، فإن قوله هذا يتضمن، أو يستلزم تكذيب قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وإن قال: ليس كمالاً في الدين، قلنا: إذن، هو ناقص؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّيْلُ﴾ فالبدعة كما أنها ضلالة في نفسها، فهي في الحقيقة تتضمن الطعن في دين الله، وأنه ناقص، وإن هذا المبتدع كله بما أدي أنه من شريعة الله - عز وجل - فالمبتدعون كلهم تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولم يبالوا بهذا النهي - حتى وإن حسن قصدهم - فإن فعلتهم ضلالة، وقد يثاب على حسن قصده، ولكنه يؤزر على سوء فعله، ولهذا يجب على كل مبتدع - علم أنه على بدعة - أن يتوب منها، ويرجع إلى الله - عز وجل - ويلتزم سنة الرسول ﷺ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدع أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.

أما البدع في العقيدة، فإنها تدور على شيئين:

إما تمثيل، وإما تعطيل. فالتمثيل أن يثبت الله تعالى الصفات، لكن على وجه المماثلة، فإن هذا بدعة؛ لأنه لم يكن من طريق النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلاً يثبت أن الله وجهًا، ويجعله مماثل لأوجه المخلوقين، أو أن يُثبت لله يدًا، ويجعلها مماثلة لأيدي المخلوقين، وهلم جرا، فهؤلاء مبتدعة بلا شك، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. ولقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

أما التعطيل فهو أن ينكر ما وصف الله تعالى به نفسه، فإن كان إنكار جحد وتكذيب، فهو كفر، وإن كان إنكار تأويل، فهو تحريف، وليس بكفر، إذا كان اللفظ يحتمله، فإن كان لا يحتمله، فلا فرق بينه وبين إنكار التكذيب، فمثلاً، إذا قال إنسان: إن



الله - سبحانه وتعالى - قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ والمراد باليدين النعمة: نعمة الدين، ونعمة الدنيا، أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، فهذا تحريف؛ لأن النعمة ليست واحدة، ولا ألفاً ولا ملايين، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ فليست النعمة اثنتين لا بالجنس ولا بالنوع، فيكون هذا تحريفاً وبدعة؛ لأنه على خلاف ما تلقاه النبي - صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم - وأصحابه، والأئمة الهداة من بعدهم.

أما البدعة في الأقوال: فمثل أولئك الذين يتدعون تسييحات، أو تهليلات، أو تكبيرات، لم ترد بها السنة، أو يتدعون أدعية لم ترد بها السنة، وليست من الأدعية المباحة. وأما بدع الأفعال: فمثل الذين يصفقون عند الذكر، أو يهزون رؤوسهم عند التلاوة تعبدًا، أو ما أشبه ذلك من أنواع البدع، وكذلك الذين يتمسحون بالكعبة في غير الحجر الأسود والركن اليماني، وكذلك الذين يتمسحون بحجرة النبي ﷺ، حجرة قبره الشريف، وكذلك الذين يتمسحون بالمنبر الذي يقال إنه منبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وكذلك الذين يتمسحون بمجران مقبرة البقيع، أو بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العقديّة، والقوليّة، والفعليّة، وكلها من التقدم بين يدي الله ورسوله، وكلها معصية الله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والنبي - عليه الصلاة والسلام - يقول: «إياكم ومحدثات الأمور»<sup>(١)</sup>.

---

(١) سنن أبي داود حديث رقم (٤٦٠٧)، وسنن الترمذي حديث رقم (٢٦٧٨)، وسنن ابن ماجه حديث رقم (٤٢)، وانظر: تفسير القرآن الكريم ص ٨.

## الموضوع الثاني

### التقوى

﴿... وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: الآية ١).

من الموضوعات التي دارت حولها سورة الحجرات «التقوى»، وقد جاءت في خمس

آيات من السورة، قال تعالى:

١- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: آية ١).

٢- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ (الحجرات: آية ٢).

٣- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: آية ١٠).

٤- ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: آية ١٢).

٥- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: آية ١٣).

قال ابن الجوزي: «التقوى: اعتماد المتقي ما يحصل به الحيلولة بينه وبين ما يكرهه،

فالمتقي: هو المتحرِّز ما اتقاه، وقال شيخنا علي بن عبيد الله الزاغوي: التقوى أكثر مدحًا من

الإيمان؛ لأن الإيمان قد يتخلله غيره، والتقوى لا يتخلله غيره، ويقارب التقوى الورع، إلا أن

الفرق بينهما أن التقوى أخذ عدة، والورع دفع شبهة، فالتقوى متحقق السبب، والورع

مظنون السبب، والورع تجاف بالنفس عن الانبساط، فيما لا يؤمن عاقبته»<sup>(١)</sup>.

والتقوى، والتقى بمعنى واحد، قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (سورة آل عمران:

آية ٢٨).

---

(١) نزهة الأعين النواظر ١/١٢٠.

والآية: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (سورة آل عمران: آية ٢٨).

يقول الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - موضحاً علاقة التقوى بالتقدم بين يدي الله ورسوله: «إن التقدم بين يدي الله ورسوله مخالف للتقوى، لكن نص عليه وقدمه لأهميته، ومعنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتخذوا وقاية من عذاب الله - عز وجل - وهذا لا يتحقق إلا إذا قام الإنسان بفعل الأوامر، وترك النواهي، بفعل الأوامر تقياً إلى الله تعالى، ومحبة لثوابه، وترك النواهي خوفاً من عذاب الله - عز وجل -، ومن الناس من إذا قيل له: «اتق الله»، أخذته العزة بالإثم، وتصاعد في نفسه، وعزَّ في نفسه، وأوغل في الإثم، وانتفخت أوداجه، وقال: «أمثلي يُقال له: اتق الله؟!» وما علم المسكين أن الله خاطب من هو أشرف منه، ومن هو أتقى عباد الله لله، فأمره بالتقوى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾. (الأحزاب: آية ١) وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِّي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأحزاب: آية ٣٧) ومن الذي لا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله؟ فكل واحد منا يستحق أن يُؤمر بتقوى الله - عز وجل - والواجب أنه إذا قيل له: «اتق الله»، أن يزداد خوفاً من الله، وأن يراجع نفسه، وأن ينظر ماذا أمر به، إنه لم يُؤمر أن يتقي فلاناً وفلاناً، إنما أمر أن يتقي الله - عز وجل - وإذا فسّرنا التقوى بأنها: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، تقرباً إليه ومحبةً لثوابه، وترك نواهيهِ خوفاً من عقابه؛ فإن أي إنسان يترك واجبه فإنه لم يتق الله، وقد نقص من تقواه بقدر ما حصل منه من المخالفة...»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير القرآن الكريم ص ١١.

والتقوى البالغة الجامعة: اجتناب كل ما فيه ضرر لأمر الدين، وهو المعصية، والفضول، وقد وردت التقوى في كتاب الله تعالى، بخمسة معان:

الأول: بمعنى الخوف والحشية من الله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: آية ١).

فالتقوى حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق الأشواك الطريق، طريق الحياة، الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب. عند من لا يملك إجابة رجاء.

والتقوى جماع الخير كله، وهي وصية الله في الأولين والآخرين، وهي خير ما يستفيد منه الإنسان.

روى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرتته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله»<sup>(١)</sup>.

الثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِذْ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِذَا يَافِرْهُبُونَ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (سورة النحل: آية ٥١ - ٥٢).

أفغير الله تتقون، وهو إله واحد، ومالك واحد، وله ما في السماوات والأرض، ودائن واحد، وله الدين واسباباً، منذ وجد الدين...؟!.

---

(١) سنن ابن ماجه، ح رقم (١٨٥٧).

فلا دين إلا دينه، ولا شرع إلا شرعه، ولا نعمة إلا من عنده، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (سورة النحل: آية ٥٣).

الثالث: بمعنى ترك المعصية والزلة، قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: آية ١٨٩).

وصدر الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: آية ١٨٩).

فالبر: هو تقوى الله تعالى وذلك بالتخلي عن المعاصي والرذائل، وعمل الخير بالتحلي بالفضائل، وإتباع الحق، واجتناب الباطل، وما يغضب الله - سبحانه وتعالى -.

وإتيان البيوت من أبوابها طلب الأمور كلها من مواضعها، وطلب الأمور كلها ممن يجب الرجاء، ويحقق الاستجابة، وهو القادر العادل، المتصرف في شئون خلقه.

فالله - تعالى - هو الذي يملك العطاء، والمنع، والنفع، والضرر، والحياة والموت، وليس من البر، وليس من التقوى أن تطلبوا الأمور من غير أبوابها، فهؤلاء الذين تلجؤون إليهم لا يملكون نفعاً، ولا ضرراً، ولا حياةً، ولا موتاً، ولا خلقاً، ولا عدماً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: آية ٧٣).

ضرب الله - سبحانه وتعالى - مثلاً بالذباب، وقد اختير الذهب بالذات، وهو صغير حقير، لكنه يحمل أخطر الأمراض، ويسلب أعلى شيء يملكه الإنسان.

فهو يسلب العيون والجوارح، وقد يسلب الحياة والأرواح، إنه يحمل ميكروب السل والتيفوس والدوسنتاريا والرمد، ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه، وهو الضعيف الحقير.

الرابع: بمعنى التوحيد والشهادة، قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (الأحزاب: آية ٣).

يوجه القرآن الكريم المتقين إلى تسديد القول وإحكامه، والتدقيق فيه ومعرفة هدفه، واتجاهاته قبل أن يتابعوا المنافقين والمرجفين، وقبل أن يستمعوا إلى قول الطائشين الضالين، أو المغرضين الخبثاء، ويوجههم إلى القول الصالح، الذي يقود إلى العمل الصالح.

فالله - سبحانه وتعالى - يرضى ويحفظ المسددين، ويقود خطاهم، ويصلح أعمالهم، قال تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (الأحزاب: آية ٢٠١).

يفعل الله - سبحانه وتعالى - لهم ذلك جزاء التقوى والقول السديد والعمل الصالح. والتقوى فوز عظيم؛ لأنها استقامة على نهج الله تعالى، استقامة على طريق الله، استقامة على دستور الله، فلا تنبهم أمام المتقين الطرق، ولا تشعب بهم المسالك.

وعدم إيهاهم الطرق أمام أعين المتقين، وعدم تشعب المسالك عليهم، هي السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة، التي يطلبها المتقون صباحًا ومساءً بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة البقرة ٢٠١).

الخامس: بمعنى الإخلاص، وغض الصوت، والمعرفة بحقوق الله تعالى تجاه خلقه وتجاه رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِحَقِّ اللَّهِ وَلَئِن لَّمْ يَأْتِهِمُ الْبُرْهَانُ مِنْ رَبِّهِمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كَذِبَةٌ﴾ (الحجرات: آية ٣)<sup>(١)</sup>.

وأولئك الذين يفعلون ذلك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

قال الفراء: «امتحن قلوبهم: أي جعلها خالصة للتقوى التي أمر الله بها».

وقال الأخفش: «أي جعل هذه القلوب مخصصة للتقوى عاملة بها، لا تحيد عنها

مطلقًا».

---

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، د. سليمان القرعاوي ص ٦٥٨.

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - : «طَهَّرَ اللهُ قُلُوبَهُمْ مِنْ كُلِّ قَبِيحٍ، وَجَعَلَ فِيهَا التَّقْوَى وَالْخَوْفَ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - أَنْ يَجْرَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَى وَسْوَستِهِ، وَيَغْرِيَهُمْ بِضَلَالِهِ وَكُفْرِهِ»، وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : «أَذْهَبَ عَنْ قُلُوبِهِمْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا؛ لِيَطْلُبُوا الْآخِرَةَ، وَيَكُونَ عَمَلُهُمْ، وَسَعِيهِمْ لَهَا»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن التقوى هبة عظيمة من الله تعالى، يختار لها قلوب عباده بعد امتحان واختبار وابتلاء، وبعد تخليص وتمحيص، فلا يضع الله التقوى في قلب عبد إلا وقد تهيأ لها، وقد ثبت بعد الامتحان أنه يستحقها. إنه الترغيب العميق، بعد التحذير، وهذا وذاك، يربي الله تعالى قلوب عباده المختارين، ويعدهم للأمر العظيم الذي تمض به الصدر الأول فكانوا سادة وقادة. مدنوا الدنيا، وهدبوا العالم، وقَرَّرُوا الْحَقَّ لِلْإِنْسَانِ<sup>(٢)</sup>.

---

(١) في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٨/١٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣٣٤٠/٦.

## ومن الفضائل التي يفوز بها أهل التقوى

إن أهل التقوى هم أولياء الله تعالى، الذين استجابوا لما أمرهم به، وتناهوا عما نهاهم عنه، بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الحجرات: آية ١) (١).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة الحجرات: آية ٢).

هؤلاء الذين استجابوا لأمر ربهم هم أولياؤه، ولقد قال الله عنهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (سورة يونس: آية ٦٣ - ٦٤).

والذي يتحقق فيه شروط الإيمان والتقوى، فهو ولي من أولياء الله، وأولياء الله الخالص: ﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة فصلت: آية ٣٠).

وكيف يخاف أولياء الله، أو يتطرق الحزن إلى قلوبهم، والله معهم في كل شأن من شئون حياتهم، وفي كل عمل من أعمال الخير يقومون به، وفي كل حركة، أو سكون، يأتون بها، أو يتركون؟!.

إن أهل التقوى لهم البشرى من الله تعالى بالعون والنصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل: آية ١٢٨).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ٣٩٦.



ولهـم البشرى بالسداد في العلم والحكمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (سورة الأنفال: آية ٢٩).

قال ابن وهب: سألت الإمام مالكا، عن قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (سورة الأنفال، آية ٢٩).

قال: أي: مخرجا، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق: آية ٢).

ونقول: إن تقوى الله تجعل في القلب فرقانا، يكشف له منعرجات الطريق.

يحدث هذا إذا اتبع الفرد ما أمر الله، واجتنب ما نهى الله عنه.

يحدث هذا إذا ملأ الفرد قلبه بالنية الخالصة، وعود جوارحه على الأعمال الصالحة، وإذا صان قلبه من الشرك الخفي، ولم يركن إلى الدنيا ومباهجها، وتعفف عما فيها من مال وزينة.

نقول ذلك؛ لأن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، والطرق متشابكة في النظر والفكر.

والباطل يظل متلبسا بالحق، عند مفارق الطريق، وتظل الحجة تُفحم، ولكن لا تقنع. وتُسكت، ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل، ويظل الجدل عبثا، والمنافسة جهدا ضائعا. ذلك ما لم تكن هناك التقوى، فإذا وجدت التقوى في قلب الإنسان، وسرت في قلبه وعمله، استنار بنور الله.

ووضح الحق بشرع الله، وتكشف الطريق أمام الفارين إلى الله.

والتقوى من قبل هذا ومن بعده تكفر الذنوب، وتمحو غيبش الهوى، وتكفر الخطايا والسيئات، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (سورة الطلاق: آية ٢-٣).

والتقوى تخرج صاحبها من الغم والمحنة، وتوسع له الرزق، وتأتي له بالأمان. الأمان على نفسه، وعقله. الأمان على ماله، وولده. الأمان على عرضه، وشرفه. الأمان من كل مخاوف الحياة، ووعورة الطريق. الأمان من قوة الأعداء، وكيد الخصماء، ومكر الأصدقاء.

والتقوى تجعل صاحبها بمنجاة من عذاب النار، وبمنجاة من هيب جهنم، وبمنجاة من كل ما يؤلم أو يحزن، وينال صاحبها الفوز في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الزمر: آية ٦١).

وقال تعالى أيضاً: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ (سورة النبأ: ٣١-٣٣) إنها الحشد الهائل من النعم أعدها الله للمتقين.

والتقوى توجه صاحبها إلى الخير، والتوفيق في العمل، والعصمة من الفواحش في حياته كلها، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة: آية ١٧٧).

ونحن ننظر من خلال هذه الآية إلى تلك الآفاق العالية، التي يريد الله أن يرفع الناس إليها بمنهج الرفيع القويم، ثم ننظر إلى الناس، وهم يفرون من هذا المنهج، ويتجنبونه، ويرصدون له العداوة.

## الموضوع الثالث

### الأدب الشامل مع الله ورسوله والناس أجمعين

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: آية ٢).

يقول ابن العربي: «في هذه الآية أربع مسائل:

#### المسألة الأولى: في سبب نزولها:

ثبت في الصحيح عن ابن عمرة قال: «كاد الخيران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع عنه: لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي. قال: ما أردت ذلك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية. قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه»<sup>(١)</sup>.

#### المسألة الثانية:

حرمة النبي ﷺ ميتًا كحُرْمَتِهِ حَيًّا، وكلامه المأثور بعد موته في الرِّفْعَةِ، مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قُرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفُّظِهِ بِهِ، وقد نَبَّه اللهُ تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾. (سورة

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٨٤٥)

الأعراف: آية ٢٠٤) وكلام النبي ﷺ من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة، بيّنها في كتب الفقه، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

وقد تضمنت الآيات منهجًا لأدب الحديث مع رسول الله ﷺ وخطابه، والأساس الذي يقوم عليه ذلك، وهو توقير رسول الله ﷺ توقيرًا يشمل الظاهر والباطن، كما وتضمنت الخفي والمعلن، خالصًا من أي رياء، فالتوقير العقلي قائم على الشهادة له بأنه رسول الله، وأنه خاتم الأنبياء، وأن ما جاء به عن ربه حق، والتوقير القلبي، أو الوجداني قائم على حب الرسول ﷺ؛ لأن الرسول أحب أمته، وجاءها بخير الدنيا والآخرة، وعملاً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (سورة التوبة: الآية ٢٥).

وكذلك قول رسول الله ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما<sup>(٢)</sup>، وقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»<sup>(٣)</sup>.

وهناك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى تحض على الأدب مع الرسول ﷺ وتوقيره، واتباع سنته، من ذلك قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ (الفتح: ٩).

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام، تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا، ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠).

وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: آية: ٨٠).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (النور: آية ٥٤).

---

(١) أحكام القرآن ص ١٧١٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٠٧/٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٣٣٦/٤.

وكان بعض السلف يقول: «من أمرَّ السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن

أمرَّ الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾<sup>(١)</sup>.

والتحذير من تقديم الإيذاء للرسول - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: آية ٥٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (الأحزاب: آية ٥٧).

قال العلماء: «إيذاء الله تعالى يكون بالكفر به ونسبة الصاحبة، والولد، والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود - لعنهم الله - : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾». (المائدة آية ٦٤).

وقول النصارى: «المسيح ابن الله» وقول المشركين: «الملائكة بنات الله».

وفي الحديث الذي جاء مرفوعاً: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقَلَّبُ الليل والنهار»<sup>(٢)</sup>.

وأما إيذاء الرسول ﷺ فيشمل كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال ومن الأقوال - أيضاً - قولهم: ساحر، وشاعر، وكاهن، و مجنون، وغير ذلك<sup>(٣)</sup>.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥٧/٦.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٨٢٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣٧/٧.

وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فهو إيذاؤهم كذبًا وبهتانًا، وذلك بنسبة ما ليس فيهم إليهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: آية ٥٨).

وهذا التشديد يدل على أنه كان في المدينة فريق يتولى الكيد للمؤمنين والمؤمنات، بنشر مقالة السوء عنهم، وتدبير المؤامرات لهم، وإشاعة التهم ضدهم.

وهو عام في كل زمان ومكان، فالمؤمنون والمؤمنات عرضة لمثل هذا الكيد، في كل بيئة وفي كل وقت، من الأشرار المنحرفين، والمنافقين، والكذابين، والذين في قلوبهم مرض، وهذا الصراع الأبدي هو صراع الخير والشر، والله - سبحانه وتعالى - يتولى عنهم الرد، وإبطال هذا الكيد. (١)

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: آية ٥٨).

ومن الآداب التي تدعو لها هذه السورة، تكريم العلماء، الذين كرمهم الله - تعالى - بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: آية ٢٨).

العلماء الذين يتدبرون كتاب الله، الذي أنزل على رسوله، وجعله خاتم الكتب السماوية.

العلماء: الذين يعرفون الله حق معرفته ويدعونه خوفًا وطمعًا، وهم دائمًا يفرّون إليه تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ (الذاريات: آية ٥٠).

العلماء الذين يخشون ربهم، ويبيتون ليلهم سجدًا وقيامًا، ومما رزقهم الله ينفقون، ويتصدقون على السائل والمحروم، ولا يرهبهم مكر الماكرين، وطغيان المتجبرين، يقول الرسول

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٨٨٠.

ﷺ: «فضل العالم كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر، العلماء ورثة الأنبياء، وإن

الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر»<sup>(١)</sup>.

---

(١) سنن الترمذي، حديث رقم (٢٦٨٢)، وأبي داود، حديث رقم (٣٦٤١).

## الموضوع الرابع

### التثبت من الأخبار دليل الحكمة والعقل

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ (سورة الحجرات: الآية ٦، ٧).

قال ابن العربي: في هذه الآية خمس مسائل<sup>(١)</sup>:

#### المسألة الأولى: في سبب نزولها:

رُوي «أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة مصدقاً إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه، فهاجمهم ورجع إلى النبي ﷺ، فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام، فبعث خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت، ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونهم، فلما جاءوا أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أتاهم خالد، ورأى صحة ما ذكروه عاد إلى النبي ﷺ فأخبره، ونزلت هذه الآية»<sup>(٢)</sup>. ففي رواية أن النبي ﷺ كان يقول: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»<sup>(٣)</sup>.

**المسألة الثانية:** من ثبت فسئفه بطل قوله في الأخبار إجماعاً؛ لأن الخبر أمانة، والفسق قرينه تبطلها، فأما في الإنسان على نفسه فلا يبطل إجماعاً. وأما في الإنسان على غيره فإن الشافعي، قال: «لا يكون ولياً في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: «يكون ولياً، لأنه يلي

(١) أحكام القرآن ص ١٧١٥.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٢٧٩، وأسباب النزول للواحد ص ٤١٢.

(٣) الدر المنثور للسيوطي ٧/٥٥٨.



مالها فيلي بضعها، كالعدل، وهو وإن كان فاسقاً في دينه إلا أن غيرته موفرة، وبها يحمي الحرم، وقد يبذل المال ويصون الحرمه، فإذا ولي المال فالْبُضْعُ أولى».

**المسألة الثالثة:** ومن العجب أن يجوّز الشافعي ونظراؤه إمامة الفاسق، ومن لا يؤمن على حبة مال كيف يصح أن يؤمن على قنطار دين، وأصل هذا أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم، ولم يمكن ترك الصلاة ورائهم، ولا استطيعت إزالتهم صلي معهم ووراءهم، كما قال عثمان: «الصلاة أحسن ما يفعل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم»، ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعادوا الصلاة لله، ومنهم من كان يجعلها صلاته، وبوجوب الإعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة خلف من لا يرضى من الأئمة، ولكن يعيد سرّاً في نفسه، ولا يؤثر ذلك عند غيره.

**المسألة الرابعة:** وأما أحكامه إن كان حاكماً واليا فينفذ منها ما وافق الحق، ويرد ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تُؤثر، أو قول يُحكي، فإن الكلام كثير، والحق ظاهر.

**المسألة الخامسة:** لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولاً عن غيره في قول يبلغه، أو شيء يوصله، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ، فإن تعلق به حق لغيرهما لم يقبل قوله، فهذا جائز للضرورة الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدل لم يحصل منهم شيء لعدمهم في ذلك، والله أعلم.

وقد جاء أمر الله - تعالى - صريحاً بوجوب التثبيت، والتأكد عند سماع الخير، وذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (سورة الحجرات آية ٦).

النبا: الخبر، ونبأ أخبر، قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوَورُ الرَّحِيمُ ﴾ ونبأت تنبئه: أخبر، وقوله تعالى: ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ أي: لنجازينهم بفعلهم، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ﴾ أي: أخبرني.

ويقول الرسول ﷺ داعياً إلى التأكيد والتثبت بقوله تعالى: «نَضَرَ اللهُ عبداً، سمع مقالتي فحفظها ورعاها، وبلغها من لم يسمعها، فَرُبَّ حَامِلٍ فقه إلى من لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»<sup>(١)</sup>.

ويقول سيد قطب: «التثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها - هو دعوة الله تعالى لعباده في خاتم الكتب السماوية، وهو منهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل إلى هذا المنهج لا يبقى مجال للتوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للأحكام السطحية، والفروض الوهمية في عالم البحوث، والتجارب، والعلوم»<sup>(٢)</sup>.

وما حُورب العالم الإسلامي، وضعفت قوته، وانحزم في كثير من المعارك، إلا عن طريق الرأي، والأخبار الكاذبة المصطنعة، التي يدلي بها هؤلاء، الذين هم جنود إبليس في الأرض. قال الحسن البصري - رضي الله عنه - : «المؤمن وقاف حتى يتبين»<sup>(٣)</sup>. وروي عنه قوله: «المؤمن وقاف متأنّ، وليس بحاطب ليل».

وهذا القول من الحسن البصري يتفق والأثر الذي يقول: «إن رأيت مثل الشمس فاشهد أو فدع» الطبراني في الشهادة.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٨٢.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٢٢٧.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٠/٢٨٢.

ويقول ابن الجوزي في تفسيره: «ما اعتمد أحد أمرًا إذا هم بشيء مثل التثبيت؛ فإنه من عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب، كان الغالب عليه الندم»<sup>(١)</sup>، وهذا أمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله وجماعة المسلمين بالتشاور، بقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (سورة آل عمران: آية ١٥٩).

وقد استنبط الدكتور ناصر بن سليمان العمر منهجًا شرعيًا في التثبيت والتبين، قال فيه عند ورود الخبر فإنه يجب مراعاة ما يلي:

١ - عدالة الراوي.

٢ - ضبط الراوي، وإتقانه، وقوة حفظه.

٣ - حسن الفهم، ودقة الاستيعاب<sup>(٢)</sup>.

ثم يقدم كلمة هادفة للعالم الجليل ابن القيم - رحمه الله - قائلاً: «صحة الفهم، وحسن القصد من أعظم نعم الله، التي أنعم الله بها على عبده»، ثم قال: «وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفساد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغبي والرشاد»<sup>(٣)</sup>.

وقد قال كثير من العلماء أن مدلول الآية عام، وهو مبدأ التمحيص، والتثبيت من خير الفاسق.

فأما الصالح فيؤخذ بخبره؛ لأن هذا هو الأول في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء، والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبيت؛ لأنه أحد مصادره.

---

(١) صيد الخاطر ص ٤٤٠

(٢) سورة الحجرات، ص ٢٩٤

(٣) مرجع سابق ص ٢٩٦ نقلاً عن أعلام الموقعين لابن القيم.

أما الشك المطلق في جميع المصادر، وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة، وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها، لا ليعطلها ابتداء، وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار. ويقول صاحب الظلال: «ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم، أن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله، ولكنه يزيد هذا التوجه إيضاحًا وقوة، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله ﷺ بوحى الله وإلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر، وأنه لو أطاعهم لعنتوا، وشق عليهم الأمر»<sup>(١)</sup>.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/٣٣٤٢.

## الموضوع الخامس

### أخوة المؤمنين والإصلاح بينهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (سورة الحجرات: آية

١٠).

جاء القرآن الكريم، ومن بين أهدافه تربية جيل من الناس، وتربية أمة من الأمم؛ لتحمل هذا الدين إلى البشرية كلها، تربية توافق الفطرة البشرية، وتتواءم مع النفس الإنسانية، ولا تحيد قيد أمثلة عن الجبلّة التي فطر الناس عليها.

جاء القرآن الكريم يربي الإنسان خليفة الله في الأرض، يريه قلبًا وروحًا، ويريه جسدًا وعقلًا، ويريه خلقًا وسلوكًا.

ثم ماذا...؟ يرتفع به إلى الأفق الأعلى، أفق الإنسانية، آخذًا بيده، حتى يرقى في النهاية إلى المستوى الذي تضمنه صورة حية، من تصورات القرآن للإنسان الكامل.

ويصنع منه طاقة كونية فعالة، تهيمن على الكون، وتسخره، لتحقيق الخلافة في الأرض، ويجعل منه في النهاية قوة عزيزة أبيّة، لا تذلل ولا تضعف، ولا تهن ولا تجبن، بل تواجه الأحداث في إيمان، وثقة مستمدة من عون الله العلي الكبير.

وتجاهد هذه القوة أعداء الله، وأعداء دينه، وأعداء البشرية كلها، وهي مطمئنة إلى

النصر.

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحج: آية ٤٠)

ومن هنا كانت حكمة الله - سبحانه وتعالى - في نزول القرآن الكريم منجّمًا على رسول البشرية محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ

عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (سورة الإسراء: آية ١٠٦).

نزل القرآن الكريم منجّماً؛ ليتدبر في عمق، وتنفذ تعاليمه بعد إقناع، ويكون للبشرية منهجاً ودستوراً، وقائداً ودليلاً.

يوجهها إذا بُعدت، ويبيصرها إذا أخطأت، ويأخذ بيدها بعيداً عن فتن الحياة، ومزالق الطريق.

وكان كل مسلم من الجيل الأول، جيل الصحابة - رضوان الله وسلامه عليهم - يشعر أن عين الله عليه، وأن سمع الله إليه، وأن كل كلمة منه، وكل حركة بل وكل خاطر، وكل نيّة قد تصبح مكشوفة للناس يتنزل في شأنها قرآناً على رسوله ﷺ.

من هنا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (سورة الحجرات: آية ١٠).

قال بعض أهل اللغة: الإخوة: جمع الأخ من النسب، والإخوان: جمع الأخ من الصداقة، فالله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ تأكيداً للأمر، وإشارة إلى ما بينهم وما بين الأخوة من النسب، والإسلام كالأب، قال قائلهم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه: إذا افتخروا بقيس أو تميم<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن معنى الأخوة بينهم معلوم مقرر، وقد تقرر ذلك في كلام الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الحشر: آية ١٠). وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (سورة آل عمران: آية ١٠٣).

كما تقرر في فعله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً»، فالأخوة الإنسانية، والأخوة في الدين

يعبر عنها في الجمع بلفظة «إخوان».

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٢٩/٢٧.

وأخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان ذلك مبدأ الإخاء بين المسلمين.  
وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر،  
ولكن إخوة الإسلام»<sup>(١)</sup>.

وفي حديث آخر: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ  
من البشر أن يحقر أخاه المسلم»<sup>(٢)</sup>.

والمخاطب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جميع المؤمنين، فيشمل الطائفتين: الباغية، والمبغية  
عليها، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح<sup>(٣)</sup>.

وما دام المؤمنون إخوة في الدين والعقيدة؛ فهذه أقوى من أخوة النسب، وهذه الأخوة  
تحول بينهم وبين أن يسخر بعضهم من بعض؛ لأن هذا المجتمع الذي يقيمه الإسلام لكل فرد  
فيه كرامته التي لا تمس، وهي من كرامة المجموع، ولمز أي فرد هو لمز للجماعة كلها. والقرآن  
في هذه الآية يوجه للمؤمنين ذلك النداء الحبيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وينهاهم أن يسخر قوم من قوم، أي: رجال من رجال؛ فلعلمهم خير منهم عند الله، أو  
أن تسخر نساء من نساء؛ فلعلمهن خير منهن في ميزان الله تعالى.

يقول صاحب الظلال: «وفي التعبير إيجاء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في  
أنفسهم، وتراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية التي يُوزن بها الناس، فهناك قيم  
أخرى قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد، وقد يسخر الرجل الغني من الرجل  
الفقير، وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوّهة ... ولكن

---

(١) الحديث رواه البخاري في الصلاة ٨٠.

(٢) الحديث رواه البخاري في المظالم ٣ ومسلم في البر ٣٢.

(٣) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٢٥/٢٤٤.

هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين»<sup>(١)</sup>.

سخرية الإنسان من أخيه الإنسان خلق مذموم من الله تعالى، ويُعد عن الإيمان. يقول تعالى: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الحجرات: آية ١١).

فهذه المنهيات التي نهى الله - سبحانه وتعالى - عنها هي فسوق وظلم، وذلك مذموم، ومعاقب عليه، ويستلزم التوبة من العبد، وهذا دليل على أن اللمز والتنازع معصيتان؛ لأنهما فسوق.

وفي حديث الرسول ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فَسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(٢)</sup>.

والآية تحذر المؤمنين من البعد عن الإيمان، فهو ظلم، والظلم أحد المسالك إلى الشرك؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - حرم الظلم على نفسه، وقال لخلقه جميعاً: «فلا تظالموا» ومن لم يتب عن ذلك من السخرية، واللمز، والتنازع بالألقاب: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الظالمون لأنفسهم؛ لأنهم بفعالهم هذا يؤذون إخوانهم.

والظالمون لمجتمعهم؛ لأن هذه الأفعال مدعاة للتشاحن، والتباغض، والأحقاد، وكيف يتم ذلك في المجتمع الفاضل الكريم الذي تأدب بشرع الله وحكمته...؟!.

ومن الأخوة التي دعا إليها الإسلام في سورة الحجرات: البعد عن الظن؛ لأن ظن الإنسان سوءاً بأخيه مضاد للأخوة التي تقوم على الحب والتواصل، والثقة والصفاء، والظن

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٦/٣٣٤٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/١٧٦-١٧٨.



السيء يهدم كل ذلك، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ  
الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات: آية ١٢).

الظن داء وبيل وخطير، وما ظهرت العقائد الضالة، والمذاهب الباطلة إلا من الظنون  
الكاذبة، قال الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (سورة آل عمران: آية  
١٥٤).

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن  
شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: آية ١٤٨).

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا  
تَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام: آية رقم ١١٦).

ويقول الرسول ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»<sup>(١)</sup>.

ويقول أيضاً: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»<sup>(٢)</sup>.

أي: أحسنوا الظن بالله، قبل أن تموتوا، فيعاقبكم الله على ظنكم السيئ به.

إن الله - تعالى - يأمرنا باجتنب كثير من الظن، فهل يصح أن نترك أنفسنا نهباً لكل  
ما يهيجس فيها - حول الآخرين - من ظنون وشبهات، وشكوك وتعلل، وما دام النهي عن  
الظن منصباً على أكثره؛ فالواجب اجتناب الظن السيء أصلاً؛ لأن الإنسان لا يدري أي  
ظنونه تكون إثماً، وما أحسن أن تكون أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون.

ولا شك أن قول الله - تعالى - : ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ يعدُّ سياجاً حول حقوق  
الناس الذين يعيشون في مجتمعه، فلا يؤخذون بظنِّه ولا يُحاكمون بريئة. ولا يصبح الظن

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٥٦٣).

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٨٧٧).

أساساً لمحاكمتهم، بل لا يصبح أساساً للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم، والرسول ﷺ يقول: «إذا ظننت فلا تحقق».

ومعنى هذا أن يظل الناس - في نظر أولي الأمر - أبرياء مصونة حقوقهم وحررياتهم، حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه، ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم.

وكذلك من الأخوة عدم التجسس، عن مجاهد - رضي الله عنه - قال: «لا تجسسوا، خذوا ما ظهر لكم، ودعوا ما ستر الله».

وروى الإمام أحمد بسنده عن دجين - كاتب عقبة - قال: قلت لعقبة: «إن لنا جيراناً يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرطَ فيأخذونهم».

قال عقبة: «لا تفعل، ولكن عظمهم، وتهددهم».

قال: «ففعّل، فلم ينتهوا».

قال: فجاءه دجين فقال: «إني قد نهيتهم فلم ينتهوا ... وإني داع لهم الشرطَ

فتأخذهم».

فقال له عقبة: «ويحك لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر عورة

مؤمن، فكأنما أحيا موءودة من قبرها».

قال الرسول ﷺ: «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف رحله»<sup>(١)</sup>.

فهل يمكن أن يعود الناس في المجتمع الإسلامي أخوة متحابين بعيدين عن الشحناء والبغضاء، والتقاتل، وشن الحرب الظاهرة والخفية بينهم؟.

هل يمكن أن يعود المجتمع الإسلامي إلى الآداب التي دعاهم إليها ربهم في سورة الحجرات، فلا يقع في مجتمعهم الظن السيء ولا التجسس، ولا الغيبة ولا النميمة...؟  
هل يمكن أن نعود إخوة متحابين، لا فضل لأحد على أحد في رحاب الإيمان والإسلام إلا بالتقوى والعمل الصالح؟.

هل يمكن أن يعود المؤمنون الذين نادهم رب العزة بقوله خمس مرات في هذه السورة: «يا أيها الذين آمنوا» إلى رحاب الكتاب المنزل نستلهمه النصر والفوز، والسداد والرشد، وندخل في قائمة الذين وصفهم الله بقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة: الآيتان ١٦ - ١٧).

---

(١) سنن أبي داود، حديث رقم (٤٨٨٠)، وسنن الترمذي، حديث رقم ٢٠٣٢، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

## الموضوع السادس

### الأخوة الإنسانية

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: آية ١٣).

قال ابن العربي: في هذه الآية أربع مسائل:

**المسألة الأولى:** روى الترمذي وغيره أن النبي ﷺ خطب يوم فتح مكة، فقال: «إن الله

أذهب عنكم عبية الجاهلية، وتعاضمها، فالناس رجلان: برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هيئ على الله، والناس لآدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: آية ١٣).

**والمسألة الثانية:** بين الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية أنه خلق الخلق من ذكر

وأنثى، ولو شاء لخلقه دون أنثى، كخلق لآدم، أو دون ذكر كخلق ليعسى - عليه السلام - وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود.

وقد جاء أن آدم خلق الله منه حواء من ضلع انتزعها من أضلاعه، فلعله هذا القسم.

**المسألة الثالثة:** خلق الله الخلق من الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً، وقبائل وشعوباً،

وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدرها، وهو أعلم بها، فصار كل أحد يجوز نسبه، فإذا نفاه عنه أحد استوجب الحد، مثل أن ينفيه عن رهطه وجنسه، كقوله للعربي: «يا عجمي»، وللعجمي: «يا عربي»، ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وفي صحيحه عن النبي ﷺ: «الحسبُ المال، والكرم التقوى»<sup>(١)</sup>. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وقد قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

وقال - عليه السلام - : «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي». ولذلك كان أكرم البشر على الله تعالى، وهذا المعنى هو الذي لحظه مالك في الكفاءة في النكاح.

روي عن عبد الله، عن مالك: يزوج المولى العربية، واحتج بهذه الآية.

وقال أبو حنيفة والشافعي: «يراعى الحسب، والمال».

وفي الصحيح عن عائشة: «أن أبا حذيفة بن عقبة بن ربيعة - وكان ممن شهد بدرًا مع النبي ﷺ تبنى سالمًا، وأنكحه هند بنت أخيه الوليد بن عقبة بن ربيعة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود الكندي فدلَّ على جواز نكاح المولى العربية، وإنما تُراعى الكفاءة في الدين»<sup>(٢)</sup>.

وقال البغوي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني: آدم وحواء، أي: إنكم متساوون في النسب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ جمع شَعْب بفتح الشين، وهي رؤوس القبائل، مثل: ربيعة ومضر والأوس والخزرج، سُمُّوا شعوبًا لتشعبهم واجتماعهم، كشُعْب أغصان

(١) سنن الترمذي، ح ٣٢٧١.

(٢) أحكام القرآن ٤/١٧٢٥.

الشجر، والشعب من الأضداد، يقال: شَعَبَ، أي: جَمَعَ، وشَعَبَ، أي: فَرَّقَ ﴿وَقَبَائِلُ﴾ وهي دون الشعوب، واحدها قبيلة: وهي: كبكر من ربيعة، وتميم من مضر، ودون القبائل: العمائر، واحدها عمارة بفتح العين: وهم كشيبيان من بكر، ودارم من تميم، ودون العمائر: البطون، واحدها بطن: وهي كبني غالب ولؤي من قريش، ودون البطون: الأفخاذ، واحدها فخذ: وهي كبني هاشم وأمية من بني لؤي، ثم الفصائل والعشائر واحدها: فصيلة، وعشيرة، وليس بعد العشيرة حي يُوصف به. وقيل: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والأسباط من بني إسرائيل.

وقال أبو روق: «الشعوب» الذين لا يعزون إلى أحد، بل ينتسبون إلى المدائن والقرى، و«القبائل»: العرب الذين ينتسبون إلى آبائهم.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾: ليعرف بعضكم بعضًا في قرب النسب وبعده، لا ليتفاخروا، ثم أخبر أن أرفعهم منزلة عند الله أتقاهم، فقال:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قال قتادة في هذه الآية: «إن أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عطية: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، أي: لئلا تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض، فإن الطريق إلى الكرم غير هذا، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وروى أبو بكر: قيل: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله»<sup>(٢)</sup>،

(١) مختصر تفسير البغوي ٢/٨٨٠.

(٢) سنن الترمذي.

وفي حديث آخر: من خير الناس؟ قال: «أمرُّهم بمعروف، وأنهاهم عن منكر، وأوصلهم للرحم، وأتقاهم»<sup>(١)</sup>.

وقال سيد قطب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: يا أيها المختلفون أجناسًا وألوانًا، المتفرقون شعوبًا وقبائل، إنكم من أصل واحد؛ فلا تختلفوا، ولا تفرقوا، ولا تتخاصموا، ولا تذهبوا بددًا. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى... وهو يطلعكم على أن الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل ليست التنافر والخصام إنما التعارف والوثام، فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف، والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس، واللغة والوطن، وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، وإنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ والكرام حقًا هو الكرام عند الله، وهو يزنكم، وهو العليم الخبير بالقيم والموازن: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يحكم العليم الخبير بين البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص جميع المظاهر التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب واضح للألفة والتعاون: أنهم جميعًا عباد الله، خلقهم ربه من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته، لواء التقوى في ظل الله، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام؛ لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤٣٢/٦ وانظر المحرر الوجيز ٥١٢/١٣.

للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها، تنزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام!.

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها؛ ليقم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة: راية الله... لا راية الوطنية، ولا راية القومية، ولا راية البيت، ولا راية الجنس، فكلها رايات زائفة لا يقرها الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان».

وقال ﷺ: «عن العصبية الجاهلية: «دعوها فإنها منتنة».

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المخلوق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق؛ لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم... الطريق إلى الله... ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمع... راية الله<sup>(١)</sup>.

يقول محمد الأمين الشنقيطي:

«لما كان قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يدل على استواء الناس في

الأصل؛ لأن أباهم واحد، وأمهم واحدة، وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض، بيّن الله تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل؛ لأجل أن يتعارفوا، أي: يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض، ويتطاول عليه.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٤٨



وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض، وأكرم منه؛ إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بيّن الله ذلك هنا بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله، لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وقد وُضِعَ الكفرُ الشريفَ أبا لهبٍ

وقد ذكروا أن سلمان - رضي الله عنه - يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية تدل على أن دين الإسلام دين سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان، ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعبر فيه تقوى الله جل وعلا، وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم الله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب»<sup>(١)</sup>.

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور:

«والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجًا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون، والعشيرة متعارفون من عائلات، إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها.

فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه، نظامًا محكمًا لربط أواصرهم، دون مشقة ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم بينه وبين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر، وهكذا حتى يعم أمة، أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات بين البشر إلا هذا الناموس الحكيم.

---

(١) أضواء البيان ٧/٦٥٣.

وقد جبر الله صدع العرب بالإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فردهم إلى الفطرة السليمة.

وأمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يصلحوا بين الطوائف المتقاتلة، ونهاهم عما يثلم الأخوة، وما يعين على نورها في نفوسهم من السخرية واللمز، والتنازب والظن السوء، والتجسس والغيبة، وذكرهم بأصل الأخوة في الأنساب، التي أكدتها أخوة الإسلام، ووحدة الاعتقاد؛ ليكون ذلك التذكير عوناً على تبصرهم في حالهم، ولما كانت السخرية، واللمز، والتنازب مما يحمل عليه التنافس بين الأفراد والقبائل، جمع الله ذلك كله في هذه الموعظة الحكيمة التي تدل على النداء عليهم بأنهم عمدوا إلى هذا التشيع الذي وضعته الحكمة الإلهية فاستعملوه في فاسد لوازمه، وأهملوا صالح ما جعل له بقوله: ﴿لتعارفوا﴾ ثم اتبعه بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: فإن تنافستم في التقوى، كما قال تعالى: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

والخبر في قوله: ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ مستعمل كناية عن المساواة في أصل النوع الإنساني؛ ليتوصل من ذلك إلى إرادة اكتساب الفضائل والمزايا التي ترفع بعض الناس على بعض كناية بمرتبين، والمعنى المقصود من ذلك هو مضمون جملة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فتلك الجملة تنزل من جملة: ﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ منزلة المقصد من المقدمة والنتيجة من القياس، ولذلك فصلت لأنها بمنزلة البيان.

وأما جملة: ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ فهي معترضة بين الجملتين الآخرتين. والمقصود من اعتراضها: إدماج تأديب آخر من واجب بث التعارف والتواصل بين القبائل والأمم، وأن ذلك مراد الله منهم.

ومن معنى الآية ما خطب به رسول الله ﷺ في حجة الوداع إذ قال: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وأن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى».

ومن نمط نظم الآية وتبيينها، ما رواه الترمذي في تفسير هذه الآية، قول النبي ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عُيْبَةَ الجاهلية، وفخرها، لا لآباء الناس، مؤمن تقى أو فاجر شقى، أنتم بنو آدم وآدم من تراب». وفي رواية: «أن ذلك مما خطب به يوم فتح مكة». (عُيْبَةَ: بضم العين المهملة وبكسرهما، وبتشديد الموحدة المكسورة، ثم تشديد المثناة التحتية: الكبر والفخر. ووزنهما على لغة ضم الفاء فعَوْلَةٌ، وعلى لغة كسر الفاء فعَلِّيَّةٌ، وهي إما مشتقة من التعبية، فتضعيف الباء لمجرد الإلحاق، مثل: نضَّ الثوب بمعنى: نضى أو مشتقة من عباب الماء، فالتضعيف في الباء أصلي) (١).

وجملة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً، وإنما أُخِرَتْ في النظم عن جملة: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، لتكون تلك الجملة السابقة كالتوطئة لهذه، وتنزل منها منزلة المقدمة، لأنهم لما تساوا في أصل الخلقة من أب واحد، وأم واحدة، كان الشأن أن لا يفضل بعضهم بعضاً إلا بالكمال النفساني، وهو الكمال الذي يرضاه الله لهم، والذي جعل التقوى وسيلته، ولذلك ناط التفاضل في الكرم بـ: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ إذاً لا اعتداد بكرم لا يعبا الله به.

والمراد بالأكرم: الأنفس والأشرف.

والأتقى: الأفضل في التقوى، وهو اسم تفضيل، صيغ من (اتقى) على غير قياس.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٥/٢٦١

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تعليل لمضمون: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما كان أكرمكم أتقاكم؛ لأن الله عليم بالكرامة الحق، وأنتم جعلتم المكارم فيما دون ذلك من البطش، وإفناء الأموال في غير وجه، وغير ذلك الكرامة، التي هي التقوى.

«خبير» بمقدار حظوظ الناس من التقوى، فهي عنده حظوظ الكرامة، فلذلك الأكرم، هو الأتقى، وهذا كقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: هو أعلم بمراتبكم في التقوى، أي: التي هي التزكية الحق، ومن هذا الباب قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

علم أن قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى، مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس، مثل: حسن التربية ونقاء النسب، والعراقة في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم، وفي الفضائل، وفي العائلات، وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد، فما يترك آثارًا لأفرادها وخلاها، قال النبي ﷺ: «الناس معادن، كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا».

فإن في خلق الأنبياء آثارًا من طباع الآباء الأديين أو الأعلين تكون مهينة نفوسهم للكامل أو ضده، وأن للتهذيب والتربية آثارًا جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعفة، وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والذكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى.

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تذييل، وهو كناية عن الأمر بتزكية نواياهم في معاملاتهم، وما يريدون من التقوى، بأن الله يعلم ما في نفوسهم، ويحاسبهم عليه<sup>(١)</sup>.

---

(١) المرجع السابق ٢٥/٢٦٢.

## الموضوع السابع

### الإسلام والإيمان

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: آية ١٤).

والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك. والإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأرسل به الرسل جميعاً، من لدن إبراهيم - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧). وقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨).

ونوح - عليه السلام - يقول لقومه:

﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (يونس: آية ٨٤)

وسحرة فرعون عندما هددهم بالقتل والصلب، دعوا الله أن يتوفاهم مسلمين، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: آية ١٢٦).

وكذلك يوسف - عليه السلام - حيث يقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: آية ١٠١).

وعيسى - عليه السلام - كانت دعوته إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: آية ٥٢).

فالدين الذي جاء به الرسل جميعاً دين واحد، يقوم على توحيد الله، والعبادة لله وحده لا شريك له، دين الإسلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: آية ١٩).

ثم جاء خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ، فكانت دعوته واضحة صريحة بيّنة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: آية ٨٥).

وفي حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام..؟»

فقال رسول الله ﷺ: الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه!.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره، وشره.

قال: صدقت»<sup>(١)</sup>.

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٨).

فظهر في هذا الحديث أن الإسلام هو الاستسلام، والانقياد، والامتثال، والنطق بالشهادتين، وإقامة الفرائض، التي فرضها الله تعالى.

أما الإيمان: فهو التصديق بالقلب.

وذلك أن الأعراب - أهل البادية - عندما قالوا: «آمنا» رد عليهم الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ (الحجرات: آية ١٤).

وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم، وثبوت الإسلام لهم.

وذلك يستلزم أن الإيمان أخص من الإسلام؛ لأن نفي الأخص لا يلتزم نفي الأعم.

قال الإمام ابن كثير: «نستفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام،

كما هو مذهب أهل السنة، والجماعة ويدل عليه، حديث جبريل - عليه السلام - مع الرسول ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: استسلمنا خوف القتل والسي. قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمه»<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام القرطبي: «الآية خاصة ببعض الأعراب، ولكن قولوا: استسلمنا خوف

القتل والسي، وهذا صفة المنافقين؛ لأنه قد أسلم ظاهريهم، ولم تؤمن قلوبهم، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ﴾ أي: تخلصوا الإيمان»<sup>(٢)</sup>.

ويقول صاحب الظلال: «ومع هذا فالإسلام الظاهر، الذي لم يخالط القلب فيستحيل

إيماناً واثقاً مطمئناً، هذا الإسلام يكفي لتحسب لهم أعمالهم الصالحة، فلا تضيع كما تضيع

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٣٤/٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٨/١٦.

أعمال الكفار، ولا ينقص من أجرهم شيء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة، فيقبل من العبد أول خطوة، ويرضى منه الطاعة والتسليم، إلى أن يستقر الإيمان في قلبه، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك»<sup>(٢)</sup>.

والإيمان: «القول باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان»<sup>(٣)</sup>.

وختامًا نرجو من الله القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به أمة الإسلام والمسلمين. والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ٦/٣٣٤٩.

(٢) كتاب الإيمان ص ٢٥٦.

(٣) مرجع سابق ص ٢٧١.



## ثبت بالمراجع والمصادر

### أولاً: كتب التفسير:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمد البخاري، دار الفكر العربي، مصر.
- ٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن، الشيخ محمد الأبس الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مكتبة المغني، الرياض.
- ٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل تفسير، ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- ٥- التفسير الكبير، لحجة الإسلام ابن تيمية، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
- ٦- التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٧- التفسير والمفسرون، تأليف: الشيخ محمد حسين الذهبي ط دار الكتب الحديثة، مصر.
- ٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تأليف: عبد الرحمن بن الكمال، جلال الدين السيوطي، ط دار الفكر، بيروت لبنان.
- ٩- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الناشر دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ١٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، ط على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمدان أمير دولة قطر.
- ١١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث، القاهرة.

- ١٢- الموسوعة العلمية في بيان علوم القرآن الكريم وتفسير محكمه ومتشابهه، للدكتور سليمان بن صالح القرعاوي، المملكة العربية السعودية.
- ١٣- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر.
- ١٤- تفسير ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد الله الأنصاري والسيد عبد العال، طبع على نفقة أمير دولة قطر.
- ١٥- تفسير أبي السعود المسمى: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لقاضي القضاة، أبي السعود محمد العماري، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
- ١٦- تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، ط دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ١٧- تفسير البغوي، الإمام أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق: محمد النمر وآخرين، ط دار طيبة، الرياض ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م.
- ١٨- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس.
- ١٩- تفسير الطبري المسمى بـ: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، ومراجعة أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف مصر.
- ٢٠- تفسير القرآن الكريم، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الرياض ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ٢١- تفسير القرآن العظيم: للإمام المحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ط دار المعرفة، بيروت.
- ٢٢- تفسير القرآن، للإمام العلامة، شيخ الإسلام، حجة أهل السنة والجماعة، أبي المظفر السمعاني، ط دار الوطن، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢٣- تيسير الكرمين الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي،  
توزيع مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة، المملكة العربية السعودية.

٢٤- زاد المسير في علم التفسير، للشيخ عبد الرحمن الجوزي، ط المكتب الإسلامي.

٢٥- في ظلال القرآن، للمرحوم سيد قطب، ط دار الشروق، القاهرة.

#### ثانياً: كتب السنة:

٢٦- الأدب المفرد للإمام البخاري، ترتيب وتقديم: كمال يوسف الحوت، ط عالم الكتب،  
بيروت، لبنان.

٢٧- المستدرک علی الصحیحین، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، الناشر:  
دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٢٨- المسند، للإمام أحمد بن حنبل، ط المكتب الإسلامي.

٢٩- المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، حققه وخرج أحاديثه:  
حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة التوعية الإسلامية، العراق.

٣٠- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة، رتبته ونظمه ونشره أ.ى  
ونسك و.ى. ب منسج ط بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٦٩م.

٣١- الموطأ للإمام مالك بن أنس، صححه ورقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث،  
القاهرة.

٣٢- جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده) والجامع الكبير، للإمام السيوطي، طبع  
على نفقة الوزير حسن عباس زكي.

٣٣- سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، تحقيق الأستاذ: محمد فؤاد  
عبد الباقي، بدون طبعة.

٣٤- سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، ط دار الحديث، القاهرة.

٣٥- صحيح الإمام مسلم، للإمام أبي الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وبوبه: محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٧- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للفقهاء المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني، تصحيح وتعليق أحمد الفلاش، ط مكتبة التراث الإسلامي، حلب.

٣٨- مفتاح كنوز السنة، وضعه باللغة الإنجليزية، الدكتور: أ.ى فنسك، ونقله إلى اللغة العربية: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار القلم، بيروت، لبنان.

٣٩- نصب الراية لأحاديث الهداية، للعلامة جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي، ط دار الحديث، القاهرة.

#### ثالثاً: كتب اللغة:

٤٠- الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط دار العلم للملايين، بيروت.

٤١- ترتيب القاموس المحيط، للأستاذ الطاهر أحمد الزواوي، مفتي ليبيا، ط عيسى البابي الحلبي مصر.

٤٢- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي المصري، ط دار صادر، بيروت.

٤٣- مجمل اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت.

ولله الفضل والمنة.

## فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
	مقدمة المدخل: سورة الحجرات في ضوء التفسير الموضوعي.
	الموضوع الأول: التزام المؤمنين بما أمر به الله ورسوله من قول أو فعل.
	الموضوع الثاني: التقوى.
	الموضوع الثالث: الأدب الشامل مع الله تعالى ورسوله والناس أجمعين.
	الموضوع الرابع: تبين صحة الأخبار.
	الموضوع الخامس: أخوة المؤمنين والإصلاح بينهم.
	الموضوع السادس: حقيقة الإسلام والإيمان.
	الموضوع السابع: الأخوة الإنسانية.
	ثبت بالمراجع والمصادر.
	فهرس الموضوعات.

## سورة ق

## بسم الله الرحمن الرحيم

### مدخل

سورة ق من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها، مثل: «طه»، و«ص»، و«ق»، و«يس»؛ لانفراد كل سورة منها، بعدد الحروف الواقعة في أوائلها، بحيث إذا دُعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى<sup>(١)</sup>، وقال البقاعي<sup>(٢)</sup>، والسيوطي<sup>(٣)</sup>، أنها تسمى بالباسقات، وفي تسميتها بذلك، قال البقاعي: «مقصودها تصديق النبي ﷺ في الرسالة التي معظمها الإنذار، وأعظمه الإعلام بيوم الخروج، بالدلالة علي ذلك، بعد الآيات المسموعة الغنية بإعجازها، عن تأييد بالآيات المرئية الدالة قطعاً، على الإحاطة بجميع صفات الكمال، وأحسن من هذا، أن يقال: مقصودها الدلالة على إحاطة القدرة، التي هي نتيجة ما حُتمت به سورة الحجرات، من إحاطة العلم البيان، أنه لا بد من البعث ليوم الوعيد، فتكتنف هذه الإحاطة بما يحصل من الفضل بين العباد بالعدل؛ لأن ذلك هو سر الملك، والذي هو سر الوجود، وذلك هو نتيجة مقصود البقرة، والذي تكفل بالدلالة على هذا كله ما شوهده من إحاطة القرآن بإعجازه في بلوغه، في كل من جميع المعاني، وعلو التراكيب، وجلالة المفردات، وتلازم الحروف، وتناسب النظم، ورشاقة الجمع، وحلاوة التفصيل، إلى حد لا تطيقه القوى، ومن إحاطة أوصاف الرسول ﷺ الذي اختاره سبحانه؛ لإبلاغ هذا الكتاب في الخلق، وما شوهده من إحاطة القدرة بما هدى إليه القرآن من آيات الإيجاد والإعدام، وعلى كل من الاحتمالين، دل اسمها: «ق»، لما في آياته من أثبات المجد لهذا الكتاب، والمجد هو: الشرف، والكرم،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦/٢٧٣.

(٢) نظم الدرر ١٨/٣٩٦.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١/١٥٧.

والرفعة والعلو، وذلك لا يكون إلا والآتي به كذلك، وهو ملازم لصدقه في جميع ما يأتي به، ولقاف وحدها أتم دلالة على ذلك:

**أولاً:** بمخرجها؛ فإنه من أصل اللسان، مما يلي الحلق، ويحاذيه من الحنك الأعلى، فإن ذلك إشارة إلى أن مقصود السورة: الأصل والعلو، وكل منهما دالٌّ على الصدق دلالة قوية، فإن الأصل في وضع الخير الصدق، ودلالته على الكذب، وضعية لا عقلية، وهي أيضاً محيطية باسمها، أو مسماهما بالمخارج الثلاث، والإحاطة بالحق لا تكون إلا مع العلو، وهو لا يكون إلا مع الصدق، وإحاطتها سمي بها الجبل المحيط بالأرض، هذا بمخرجها.

وأما صفتها فإنها عظيمة في ذلك، فإن لها الجهر والشدة والانفتاح والاستعلاء والقلقلة، وكل منها ظاهر الدلالة على ذلك جداً، وأدُلُّ ما فيها من المخلوقات على هذا المقصد النخل، لما انفردت به عما شاركها من النبات، بالإحاطة بالطول، وكثرة المنافع، فإنها جامعة للتفكه بالقلب، ثم الطلع ثم البسر، ثم الرطب، وبالاقنيات بالتمر، وبالخشب، والخطب، والقطا والخصوص النافع للافتراش، والليف النافع للحبال، ودون ذلك، وأعلاه من الخلال، هذا، مع كثرة ملابسة العرب، الذين هم أول مدعو بهذا الكتاب الذكر لها، ومعرفتهم بخواصها، وأدل ما فيها الطول، مع أنه ليس لعروقتها من الامتداد في الأرض والتمكين ما لغيرها، ومثل ذلك غير كاف في العادة في الإمساك عن السقوط، وكثرة الحمل، وعظم الأثناء، وتناضد الثمر؛ ولذلك سُمِّيَت سورة: «الباسقات» لا «النخل»<sup>(١)</sup>.

وهي من السور المكية، قال ابن عطية: «بإجماع من المتأولين»<sup>(٢)</sup>.

وقال ابن قيم الجوزية، عن سورة «ق»:

---

(١) نظم الدرر ١٨/٣٩٦-٣٩٧

(٢) تفسير المحرر الوجيز لابن عطية ١٣/٥٢٢.



«جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي، ويغني عن كلام أهل الكلام، ومعقول أهل المعقول، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد، والتوحيد والنبوة، والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى: هالك شقي، وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عمّا يضاد كماله من النقائص والعيوب، وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى، والعالمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة، والأصغر، وهو عالم الدنيا، وذكر فيها خلق الإنسان، ووفاته، وإعادته، وحاله عند وفاته، ويوم معاده، وإحاطته - سبحانه - به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه، يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة، ومعه سائق يسوقه إليه، وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (ق: آية ٢٣) أي: هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (ق: آية ٢٤) كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه»<sup>(١)</sup>.

---

(١) بدائع التفسير ٤/١٩٢.

## أغراض سورة "ق":

**الأول:** التنويه بشأن القرآن.

**الثاني:** أنهم كذبوا الرسول ﷺ؛ لأنه من البشر.

**الثالث:** الاستدلال على إثبات البعث، وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها، وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء، وأن ذلك مثلٌ للإحياء بعد الموت.

**الرابع:** تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث، ببعض الأمم الخالية، المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك.

**الخامس:** الوعيد بعذاب الآخرة، ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

**السادس:** وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

**السابع:** تسلية النبي ﷺ على تكذيبهم إياه، وأمره بالإقبال على طاعة ربه، وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة، وأن الله لو شاء لأخذهم من الآن، ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم، وأن النبي ﷺ لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام، وإنما أمر بالتذكير بالقرآن.

**الثامن:** الثناء على المؤمنين بالبعث، بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

**التاسع:** إحاطة علم الله تعالى بخفيات الأشياء، وخواطر النفوس<sup>(١)</sup>.

وهكذا يُجمع المفسرون قدماء ومحدثين على أن سورة: «ق»، لها أهمية خاصة؛ حيث

تتضمن ملخَّصًا للحياة، منذ بدء الخلق إلى يوم الحساب، وما فيه من إقامة الحججة على

---

(١) تفسير: «التحرير والتنوير»، لابن عاشور ٢٥/٢٧٥.

الكافرين، وإثبات ما أنكروه من بعث وحساب، بالدليل القاطع، فضلاً عما تتضمنه من وعيد للكفار، بالعذاب والعقاب، ومن وعد للمؤمنين بالنعيم والثواب.

وقد بدأت السورة بتمجيد القرآن، فالقرآن هو كتاب الله المنزل على نبيه، الجامع لأوامر الله ونواهيه، وبه تقوم الحججة على الكافرين، وإلى جانب كل ذلك، نجد تسليية للنبي ﷺ وتعضيداً له في مواجهة عناد المعاندين، وأن الرسول ﷺ ليس عليه إلا دعوتهم وتذكيرهم، أما إيمانهم وهداهم، فعلى الله وحده.

وقد ورد في فضلها، ما رواه مسلم في صحيحه، عن أم هشام، بنت حارثة، بن النعمان، قالت: «لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً، سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت (ق) والقرآن المجيد، إلا من لسان رسول الله ﷺ يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس». (١)

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل أبا واقد الليثي، ماذا كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ قال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، و﴿اقتربت الساعة وأنشق القمر﴾ (٢).

قال ابن كثير: «والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في الجامع الكبار: كالعيد والجمع؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب». (٣)

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (٨٧٣)

(٢) صحيح مسلم حديث رقم (٨٩١).

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٣٦.

## المبحث الأول

### تمجيد القرآن

اختلف في معنى: «ق» ما هو؟ فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «اسم من أسماء الله - تعالى - أقسم به»، وعنه أيضاً أنه: «اسم من أسماء القرآن»<sup>(١)</sup>، وهو قول قتادة، وقال أبو يزيد وعكرمة والضحاك: «هو جبل محيط بالأرض، من زمردة خضراء، أخضرت السماء منه، وعليه طرفا السماء، والسماء عليه مقبية، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل»، وقال القرظي: «افتتاح أسماء الله تعالى: قدير، وقاهر، وقريب، وقاضي وقابض»، وقال الشعبي: «فاتحة السورة» وقال أبو بكر الوراق: «معناه: قف عند أمرنا ونهينا ولا تعدهما»، وقال محمد بن عاصم الأنطاكي: «هو قرب الله من عباده، بيانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾» (سورة ق: آية ١٦).

وقال الشوكاني: «وقيل غير ذلك مما هو أضعف منه، والحق أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه»<sup>(٢)</sup>.

أما الشيخ ابن العثيمين، فقال في تفسيره: (ق): حرف من الحروف الهجائية، التي يتركب منها الكلام العربي، وهي كسائر الحروف، ليس لها معنى في حد ذاتها، ومن المعلوم أن القرآن نزل بلسان عربي، وإذا كانت هذه الحروف، ليس لها معنى باللسان العربي، فهي كذلك ليس لها معنى في كتاب الله - عز وجل - من حيث المعنى الذاتي لها، وأما بالنسبة

---

(١) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني ٢٣٤/٥، وتفسير المحرر الوجيز ٥٢٤/١٣، والجامع لأحكام القرآن للقرظي ١٧/٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٧٠/٥.

للمغزى العظيم الكبير، فلها مغزى عظيم كبير، ألا وهو أن هذا القرآن الذي أعجز العرب، مع بلاغتهم وفصاحتهم لم يأت بشيء جديد من حروف لم يعرفونها، بل هو بالحروف التي يعرفونها، ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله، فدل ذلك على أنه من كلام العزيز الحميد - جل وعلا - ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدأت بالحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن<sup>(١)</sup>.

وقد تعددت مواضع القسم بالقرآن، وتعددت أوصاف القرآن، فقال تعالى: ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس الآيات: ٣-١) قال الراغب الأصفهاني: «إذا وصف القرآن بالحكيم؛ فلتضمنه الحكمة، نحو: ﴿الر (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس: آية ١)، وقيل: معنى الحكيم: المحكم، نحو: ﴿أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ﴾ (هود: آية ١)، وكلاهما صحيح، فإنه محكم، ومفيد للحكمة، ففيه المعنيان جميعاً<sup>(٢)</sup>.

فقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، الشريف الكريم على الله الكثير الخير<sup>(٣)</sup>. وقيل: «أي ذي الجدد، وهو العظمة والسلطان المطلق، فالقرآن له عظمة عظيمة، مهيمن مسيطر على جميع الكتب السابقة، حاكم عليها، ليس محكوماً عليه، وهو أيضاً مجيدٌ، به يجد ويعلو ويظهر من تمسك به، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (سورة البروج: الآيتان ٢١، ٢٢)<sup>(٤)</sup>.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - تفسير سورة الحجرات، ق، الذاريات... ص ٧١.

(٢) ص ١٢٧.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٧٢/٥.

(٤) تفسير القرآن الكريم لابن العثيمين ص ٧٢.

## المبحث الثاني

### تكذيب الرسول ﷺ لأنه من البشر

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (ق: آية ٢).

قال الطاهر بن عاشور: هذا من إيجاز الحذف، وحسنه أن الانتقال مشعر بأهمية المنتقل إليه، أي عد عما تريد تقديره من جواب، وانتقل إلى بيان سبب إنكارهم، الذي حدا بنا إلى القسم، كقول القائل: دَعْ ذَا، وقول امرئ القيس:

فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجرًا

وقول الأعشى:

فدع ذا ولكن رُبْ أرض مُتِيهَةٍ قطعت بمرجوج إذ الليل أظلما

ونظيره قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص: آية ٢).

وقوله: «عجبوا»، حصل لهم العجب بفتح الجيم، وهو الأمر غير المؤلف للشخص

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧٢) قَالُوا

أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿هود الآيتان ٧٣-٧٢﴾ فإن الاستفهام في «أتعجبين» إنكار، وإنما

تنكر إحالة ذلك لا كونه موجب تعجب، فالمعني هنا: أنهم نفوا جواز أن يرسل الله إليهم بشرًا

مثلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

رَسُولًا﴾ (الإسراء الآية: ٩٤).

وضمير: ﴿عَجِبُوا﴾ عائد إلى غير مذكور، فمعاده معلوم من السياق، (أعني: افتتاح

السورة بحرف التهجي)، الذي قصد منه تعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن، لأن عجزهم عن

الإتيان بمثله، في حال أنه مركب من حروف لغتهم، يدلهم على أنه ليس بكلام بشر، بل هو

كلام أبدعته قدرة الله، وأبلغه الله إلى رسوله ﷺ على لسان الملك، فإن المتحدثين بالإعجاز،

مشهورون يعلمهم المسلمون، وهم - أيضاً - يعلمون أنهم المعنيون بالتحدي بالإعجاز، على أنه سيأتي ما يفسر الضمير بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾.

وضمير: ﴿منهم﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير: ﴿عجبوا﴾، والمراد: أنه من نوعهم أي: من بني الإنسان.

و﴿أن جاءهم﴾ مجرور بـ: ﴿من﴾ المحذوفة مع ﴿أن﴾، أي: عجبوا من مجيء منذر منهم، أو عجبوا من ادعاء أن جاءهم منذر منهم.

وعبر عن الرسول ﷺ بوصف ﴿مُنذِرٌ﴾ وهو المخبر بشرّ سيكون، للإيماء إلى أن عجبهم كان ناشئاً عن صفتين في الرسول ﷺ إحداهما: أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت، أي: مخبر بما لا يصدقون بوقوعه، وإنما أنذرهم الرسول ﷺ بعذاب الآخرة بعد البعث، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: الآية ٤٦).

**والثانية:** كونه من نوع البشر.

وفرع على التكذيب، الحاصل في نفوسهم، ذكر مقالتهم، التي تفصح عنه، وعن شبهتهم الباطلة بقوله: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ الآية.

وخصّ هذا بالعناية بالذكر؛ لأنه أدخل عندهم في الاستبعاد، وأحق بالإنكار، فهو الذي غرهم، فأحالوا أن يرسل الله إليهم أحداً من نوعهم، ولذلك وصف الرسول ﷺ ابتداء بصفة ﴿مُنذِرٌ﴾ قبل وصفه بأنه: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي؛ لتكذيبهم إياه، وأن كونه منهم إنما قوّى الاستبعاد والتعجب.

ثم إن ذلك يُتخلص منه إلى إبطال حجتهم، وإثبات البعث، وهو المقصود بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

فقد حصل في ضمن هاتين الفاصلتين، خصوصيات كثيرة من البلاغة، منها: إيجاز الحذف، ومنها: ما أفاده الإضراب من الاهتمام بأمر البعث، ومنها: الإيجاز البديع الحاصل

من التعبير —: ﴿مُنذِرٌ﴾، ومنها إقحام وصفه بأنه: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنه لذلك مدخلاً في تعجبهم، ومنها: الإظهار في مقام الإضمار، على خلاف مقتضى الظاهر، ومنها الإجمال المعقب بالتفصيل في قوله: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ إِذَا مِتْنَا﴾... إلخ.

وعبر عنهم بالاسم الظاهر في: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾، دون: «فقالوا»، لتوسيمهم، فإن

هذه المقالة من آثار الكفر؛ وليكون فيه تفسير للضميرين السابقين<sup>(١)</sup>.

فالحجة أقوى حين يكون الرسول من البشر، أي: من الناس الذين أرسله الله لهم، فهو يؤمن بالله كما يطلب منهم أن يؤمنوا به، وهم مهيوون لأن يؤمنوا مثله بالله، فإن لم يؤمنوا لم تكن لهم حجة، بأن يدعوا عجزهم، عن تصديق ما جاءهم به واحد منهم، ولو كان الرسول ملكاً، لأمكن أن يُقبل منهم هذا الادعاء، بالعجز عن التصديق، أو العجز عن الإيمان، لأن الملك حين يؤمن بشيء، فإنه ليس بالضرورة إن يكون البشر قادرين على ذلك، فإن الملك من جنس غير جنسهم، وصفاته، وإمكاناته ليست كالإنسان.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/٢٧٨.



## المبحث الثالث

### إثبات البعث

قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَيْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (ق: آية ٢ - ٤).

وقد تضمن القرآن قضية البعث، فسأل إبراهيم - عليه السلام - ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْمِمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيَظْمَأَنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: آية ٢٦٠).

لقد قال إبراهيم - عليه السلام - يُنشد اطمئنان النفس إلى رؤية تلك الكيفية التي يحيي الله بها الموتى، والله يعلم إيمان عبده وخليله، ولكنه سؤال هدفه الكشف والبيان، وليس التعليل والبرهان.

ولقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم - عليه السلام - ومنحه التجربة الذاتية المباشرة.

ثم رأى إبراهيم - عليه السلام - السر الإلهي يقع بين يديه، طيورًا تفرقت أجزاءها، في أماكن متباعدة، تعود إليها الحياة مرة أخرى.

هذا هو السر الذي يعلو على المخلوق البشري إدراكه؛ لأنه من أمر الله تعالى، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، إنه الشأن الخاص للخالق، والذي لا تتناول إليه إمكانيات المخلوقين.

وقد اختلف بعض الناس في سؤال إبراهيم - عليه السلام - هل صدر عن شك أم كان طلبًا لليقين الذي يناظر الشوق للمعرفة؟

فقال الجمهور: لم يكن إبراهيم - عليه السلام - شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعاينة؛ ليكون إيمانه أكمل وأوسع، أو هو ضرب من إقامة الحجة على من ينكرون البعث، فهذا هو ذا يعاين واقعة من وقائع إحياء الموتى، معاينة له ولغيره، وحجة له، والله على غيره.

وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا قال الرسول ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»<sup>(١)</sup>.

وأما الشك فهو توقف بين أمرين، لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل - عليه السلام -.

وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع على ذلك، وقد كان إبراهيم - عليه السلام - أعلم به يدل قوله: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة: آية ٢٥٨).

فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة، والأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر؟

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويؤيكم آياته لعلكم تعقلون ﴿ (البقرة: آية ٧٢).

لقد كشف الله لقول موسى - عليه السلام - عن الحكمة من ذبح البقرة، لقد كانوا قد قتلوا نفساً منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفس التهمة ويلحقها بسواه، ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القاتل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه

---

(١) الجامع الصغير للسيوطي، حديث رقم (٧٥٧٤).

وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح، وهكذا كان فعادت إليه الحياة، بأمر الله - تعالى - (١)؛ ليخبر بنفسه عن قاتله.

ولقد كان ذبح البقرة مجرد وسيلة ظاهرة، تكشف لهم قدرة الله - تعالى - وإلى من لا يعرف البشر، فهم يشاهدون آثارها، ولا يدركون كنهها، وكذلك يحيي الموتى.

ونختم قضية البعث التي أنكرها الكافرون الجهلاء، بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾. (القمر: الآيتان ٦، ٧).

ويصور القرآن الناس، حين يخرجون من قبورهم بالجراد المنتشر، يقول تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) حُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ وقد تكرر إنكار الكفار للبعث، في أكثر من موضع في القرآن، يقول تعالى: ﴿وَلَعِنَّا فُؤَادَ عَائِدِهِمْ لَعْنَةً يُرْمَوْنَ بِمَا يُكَفِّرُونَ وَلَعْنَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآيَاتِ لَعْنَةُ الْحَائِلِينَ الَّذِينَ إِذَا أُصْحِرُوا فَسَحَرُوا وَإِذَا كَانُوا لَعْنَةُ اللَّهِ لَعْنَةً يُرْمَوْنَ بِمَا يُكَفِّرُونَ وَلَعْنَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْآيَاتِ لَعْنَةُ الْحَائِلِينَ الَّذِينَ إِذَا أُصْحِرُوا فَسَحَرُوا وَإِذَا كَانُوا لَعْنَةُ اللَّهِ لَعْنَةً يُرْمَوْنَ بِمَا يُكَفِّرُونَ﴾ (هود: الآية ٧).

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (المؤمنون: الآية ٨٢)، بل إن الكفار انتقلوا من مستوى الاستفهام الإنكاري، إلى التقرير باستحالة البعث، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام: الآية ٢٩).

وقال تعالى، مبيناً معاندة الكفار من قوم نوح - عليه السلام - وإنكارهم البعث، حيث يتهاكمون باتباعه، مقررًا أن ما يعدهم به من البعث باطل: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَن تَكُونُوا إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْ تَكُمُ مَخْرُجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون الآيات: ٣٥ - ٣٧).

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/٣٩٧.

ويرد الخالق العظيم على منكري البعث بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ  
الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ  
لَكُمْ وَنُقَرِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: الآية ٥).

والله الخالق من العدم، هو القادر على البعث، يستوي عنده الخلق والبعث، فقدرته  
مطلقة، لا يحدها زمان ولا مكان، وأمره كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ  
كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: الآية ٨٢).

ويقول تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان:  
الآية ٢٨).

أي: إن الله خلقكم جميعًا، وبعثكم جميعًا، كخلق نفس واحدة وبعثها، لا يتعذر عليه  
شيء.

## المبحث الرابع

### في خلق السماوات والأرض

#### وما فيه من إعجاز

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّيْنَاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿ (ق: الآيات ٦-٨).

أفلم ينظروا إلى هذا السماء، التي تعد صفحة من صفحات الكون، الذي لا يحده، ويتأملوا ما فيها من علو وارتفاع، وإلى ما فيها من كواكب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿ (الصفات: الآية ٦).

الكواكب التي لا تحد ولا تحصى، والفلك الذي لا يتوقف.

قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ (يس: الآية ٤٠).

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يتفكر ولا يتبصر هؤلاء الجاحدون؟

لماذا لا يدركون أن الذي خلق هذا الكون العريض، هو الذي أوجد الأحياء جميعاً، الله الذي خلق الإنسان، وكرمه، وفضله، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿ (الإسراء: الآية ٧٠).

ولقد صدق الأعرابي في قوله: «البعرة تدل على البعير، والقدم تدل على المسير، فسماء

ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟»<sup>(١)</sup>.

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/٩٩.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾، أي: حَسَّنَّا منظرها، بما خلق الله - تعالى - فيها من النجوم العظيمة، المنيرة، المنتظمة في سيرها، وهذه النجوم، قال قتادة - رحمه الله - وهو من أئمة التابعين: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، وعلامات يهتدى بها، ورجومًا للشياطين، فمن ابتغى فيها شيئًا سوى ذلك فقد أضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»<sup>(١)</sup>.

ويقول صاحب التحرير والتنوير: في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾: «الفرج: الخرق، أي: يشاهدونها كأنها كرة متصلة الأجزاء، وليس بين أجزائها تفاوت، ولا تباعد يفصل بعضها عن بعض، فيكون خرقًا في قبتها، وهذا من عجيب الصنع أن يكون جسم عظيم، كجسم كرة الهواء الجوي، مصنوعًا كالفروع في قالب.

وهذا مشاهد لجميع طبقات الناس، على تفاوت مداركهم، ثم هم يتفاوتون في إدراك ما في هذا الصنع، من عجائب التمام كرة الجو المحيط بالأرض»<sup>(٢)</sup>.

ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ (الملك: الآية ٣) وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق: الآية ٧).

فالامتداد في الأرض والرواسي الثابتات، والبهجة في النبات، والتي تمثل لصفة الاستقرار والثبات والجمال.

إن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يوجه عباده إلى عالم السماوات والأرض، وإلى البحث في عجائبهما وبدائعها؛ عندها يصير المؤمن عالمًا عارفًا بما يحيط به من العوالم.

(١) صحيح البخاري ٧٤/٤ كتاب بدء الخلق، وانظر: تفسير القرآن الكريم للشيخ ابن العثيمين ص ٧٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٥/٢٨٧.

ولقد علم الله - سبحانه وتعالى - في سابق علمه، أن أتباع خاتم الأنبياء والمرسلين استمر عليهم أجيال وقرون، وهم لا يعرفون من القرآن إلا الأحكام الشرعية، يعيشون ويموتون وهم لا يعقلون إلا علوم الشرع والقضاء، وفقه العبادات؛ فأراد الله - سبحانه وتعالى - أن يوجه عقولنا - أيضاً - إلى معارف أخرى، والتي تحيط بنا في الآفاق، من نبات وحيوان، وهواء، وماء، وتكنولوجيا متطورة، ونجوم، وسماء، فأنزل في كتابه ما يشجعنا على ذلك، فحدثنا في كتابه عن السماوات، وما فيها من أطباق، وقال: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: الآية ١٩).

وأرشدنا إلى ما في باطن الأرض من كنوز ومعادن، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ (الحديد: الآية ٢٥).

فلماذا لا نخرج إلى طبق المشتري والمريخ، كما خرج غيرنا؟ لماذا لا نتعمق في دراسة الأرض التي نعيش عليها؟ لماذا لا ندرس ما في البحار من كنوز وجواهر؟ والتي يقول عنها كتاب ربنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مِّنْ حَبْلٍ لَّيْسُ مِنْهَا﴾ (النحل: الآية ١٤).

إن سورة: «ق» تحوي كل هذه المعاني، فإن لم نجعل هذا الكتاب وجهتنا، فلن يكون بيننا وبين غيرنا تعارف، امتثالاً لأمر الله - تعالى - حيث يقول: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: الآية ١٣).

وإن لم نعد إلى هذا الكتاب، فلن يظهر ديننا على الدين كله، وقد قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الفتح: الآية ٢٣).

وبغير الرجوع إلى الكتاب لن تكون هناك الرحمة، التي قال الله - تعالى - عنها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: الآية ١٠٧)، والدليل على ذلك، أنه إذا نزلت بكم أيها المسلمون صاعقة التفريق، وأصبح كل منكم كالغريق، وخضتم في دياجير الظلام،

وأذاقتكم الأمم الأخرى عذاب الحزبي في الدنيا، وكنتم عبرة للأمم، وتفرقتم شذر مذر، ثم صرتم فرقاً متشاكسين، وخصوصاً متفرقين، وأحاطت بكم الأمم من كل جانب، ونبذتم القرآن، فارجعوا إليه؛ لتنهلوا من علاجه ودوائه، القرآن الذي جعل من رعاة الإبل قبلكم سادة وقادة، واستمعوا لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: الآية ٤٥).

والوعيد قسمان: قسم يختص بهلاك الأمم في الحياة الدنيا.

وقسم: يختص بعذاب يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (ق: الآية ٨).

أي: عبد راجع إلى ربه، متفكر في عجائب صنعه.

يقول الله - تعالى - : بنينا السماء وزيناها، ومددنا الأرض، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا

فيها من كل زوج بهيج، كل ذلك فعلناه لأجل تبصرة العبد المنيب:

فإن رفع السماء فلتبصرة، وإن زينة الكواكب فلتذكرة، وإن بسط الأرض، وإرساء

الجبال فكذاك، فقد جعله الله ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: أنبتنا رزقا للعباد، كما جعلناها تبصرة

وذكرى.

والرزق لجميع الأحياء من الآدميين، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

رَبِّكَ﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: الآية ٢٠).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق: الآية ١١) أي: كما حييت

هذه البلدة، يكون خروجكم أحياء بعد موتكم، فالناس يتغذون، ويتنعمون، ويتزوجون،

ويلدون، ويحيون، ثم يموتون، وهذه الأحوال كلها في النبات، فهو له حياة وغذاء، وغو وتوالد

ثم موت، وتيبس الأرض ثم تحيا بالنبات، فليقس عليه حال الإنسان فإنه بعد موته يحيا، وهذا

برهان إقناعي على البعث، لمن يتبصر ويتأمل.



فالحكيم من أدرك أن الإنسان يجيا بعد الموت؛ لأن كل ضد يتولد عنه ضده، فالصحة بعد المرض، والعز بعد الذل، هكذا مما لا نهاية له، فلتكن الحياة بعد الموت.

## المبحث الخامس

### في الكلام على الموت وسكراته وعلى الملائكة المراقبين

#### حركات الإنسان وسكناته، وفي أحوال يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿ (الآيات: ١٦-٢٠).

الله - سبحانه - خالق الإنسان، وخالق هذا الكون بما فيه وما يحويه، ويعلم أسراره

وخوافيه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: الآية ١٤).

وهو العليم بالسر والجهر، وبكل ما يظهر ويخفي، ويعلم بما توسوس به نفس الإنسان، وبكل ما يضمه من خير وشر، فهذا المخلوق مكشوف أمام مبدعه، لا يحجبه ستر، وهو الصادق في قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: الآية ٥٩).

والعبد ليس بعيداً عن ربه، ولا تحجبه الأستار عنه، ولا يخفيه الظلام؛ لأن الله - تعالى - أقرب إلى عبده من نفسه، ومن وريده الذي يجري فيه دمه، قريب منه بعلمه فهو علام الغيوب.

فإذا آمن العبد بذلك، واستقر علمه في نفسه، وتيقن أن الله تعالى مطلع عليه في القليل والكثير، ولا تخفى عليه خافية، وآمن إيماناً لا يتزعزع، بأن الله معنا في كل وقت وحين، لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى

مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿المجادلة: الآية ٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: الآية ٤).

فعلى العبد أن ياتمر بأوامر ربه، وأن ينتهي عن نواهيه، وهذا هو المطلوب من العبد، الذي كرمه ربه، وجعله خليفة له في كونه العريض اللامحدود، حيث يقول تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: الآية ٣٠).

ولا شك أن معرفة العبد تجعله في حذر دائم، وخشية، يقظ لا تغفل عينه، ولا قلبه عن المحاسبة.

ويستطرد القرآن في إحكام الرقابة على عباده، فيقول تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: الآيتان ١٧-١٨).

فهناك ملكان رقيبان، يسجلان كل كلمة، وكل همسة، وكل فعل خافٍ، وظاهر، وكل ظن ويقين، وكل ما توسوس به نفس الإنسان من خير وشر.

وقد عرفت البشرية في عهد قريب وسائل التسجيل، والتي لم تخطر لأجدادنا على بال. وهذه التسجيلات التي اخترعتها البشرية تسجل الحركة والنبرة، والصوت وكل شيء، وهذا في محيطنا نحن البشر.

إذن: فمن باب أولى أن الملائكة تسجل بطريقة تفوق تسجيل البشر، وتفوق تصوراتنا البشرية المحدودة.

وصحابة الرسول ﷺ والتابعين بإحسان استقر كلام الله تعالى في قلوبهم، فكان دستورهم في حياتهم، ونور أبصارهم، ونبض قلوبهم.

قال الرسول ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة، من رضوان الله - تعالى - ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله - تعالى - له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»<sup>(١)</sup>.

فكان علقمة بن وقاص - وهو من كبار التابعين -<sup>(٢)</sup> يقول: «فُربَّ كلام قد منعي أن أتكلم به، ما سمعت من بلال بن الحارث - راوي الحديث السابق -<sup>(٣)</sup> قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (ق: الآية ١٩).

قال العلماء: «سكرة الموت ما يعتري الإنسان عند موته، وانتهاء أجله الذي حدده الله - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: الآية ٣٨). وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (النحل: الآية ٦١).

والناس في هذه اللحظة مختلفة أحوالهم، لكن لكل واحد سكرة، وكان الرسول ﷺ يقول: «إن للموت سكرات»<sup>(٤)</sup>.

وفي صحيح البخاري، عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركة، أو علة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في ماء، فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله

---

(١) سنن الترمذي رقم حديث (٢٣١٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه ع (٣٩٦٩)، وصححه ابن حبان ح (١٥٧٦).

(٢) تقريب التهذيب ٣١/٢.

(٣) سنن ابن ماجه ١٣١٣/٢.

(٤) صحيح البخاري، رقم ح (٦٥١٠).

إلا الله، إن للموت سكرات»، ثم تصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض، ومالت يده<sup>(١)</sup>.

إن أشد ما يحاول المخلوق الآدمي أن يفرّ منه هو الموت، وهذا مُحال. يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (سورة الجمعة: الآية ٨).

فالموت حتم لا مهرب منه، وما بعده من رجوع إلى الله، وحساب على العمل، حتم لا ريب فيه.

فهذه الحياة إلى انتهاء، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

والحساب والجزاء بعد الرجعة حقيقة فلا مهرب ولا فكاك.

ويلفت النظر في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾.

إن النفس البشرية ترى الحق كاملاً، وهي في سكرات الموت تراه بلا حجاب، وتدرك منه ما كانت تجهل، وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان حين لا تنفع رؤية، ولا يجدي إدراك، ولا تقبل توبه، وذلك الحق هو الذي كذبوه، فانتهوا إلى هذا الأمر العصيب.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: الآية ٢٠ - ٢٢).

وهو مشهد يكفي استحضار في نفس الإنسان؛ لتعي ما تبقى من حياتها، وتحيا في توجس وحذر، وخوف وارتقاب، وقد قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم، وصاحب القرن قد

---

(١) مرجع سابق، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/١٧.

التقم القرن، واستمع الإذن، متى يُؤمر بالنفخ، فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: الآية ٢٤).

اختلف العلماء في السائق والشهيد، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> (الكهف: الآية ٤٩)».

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه -: «السائق الملك، والشهيد العمل»<sup>(٣)</sup>؛ لقوله تعالى:

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: الآية ٤٩)».

وعن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال وهو على المنبر: «وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد، السائق: الملك، يسوقها إلى أمر الله، والشهيد: يشهد عليها بعملها»<sup>(٤)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله - عز وجل - له، إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه، قال للملك: اكتب رزقه، وأثره، وأجله، واكتبه شقيًا، أو سعيدًا، ثم يرتفع ذلك الملك.

ويبعث الله ملكًا آخر، فيحفظه حتى يدرك، ثم يبعث ملكين يكتبان حسناته، وسيئاته، فإذا جاء الموت ارتفع ذانك الملكان.

---

(١) سنن الترمذي رقم ح (٢٤٣١). وقال: هذا حديث حسن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/١٧.

(٣) الدر المنثور للسيوطي ٦٠١/٧.

(٤) مرجع سابق.

ثم جاء ملك الموت - عليه السلام - فيقبض روحه، فإذا أُدخل في حفرته، رد الروح إلى جسده، ثم يرفع ملك الموت، ثم جاء ملكا القبر، ثم يرتفعان.

فإذا قامت القيامة، انخط عليه الملك، ملك الحسنات، وملك السيئات، فحل عقدة كتابًا معقودًا في عنقه، ثم حضر معه واحد سائق، والآخر شهيد، ثم قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: الآية ٢٢)».

قال الرسول ﷺ: «لتركبن طبقًا عن طبق» قال: حالًا بعد حالٍ.

ثم قال النبي ﷺ: «إن قدامكم لأمرًا عظيمًا، فاستعينوا بالله العظيم»<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

فالنفس هي التي تحاسب، وهي التي تلقي الجزاء، وهذه النفس لا تأتي بمفردها، ولكن معها سائق وشهيد.

سائق يسوقها إلى ساحة القضاء والحكم، وشاهد مع الوثائق والأدلة التي يدي بها أمام هيئة الحكم في هذا الموقف الذي تشيب فيه الولدان، كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل: الآية ١٧).

وتقف كل نفسي بين يدي الجبار الذي لا يظلم عنده أحد، وفي هذا الموقف العصيب يقال له: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ بصرك حديد، أي: قوي، لا يحجبه حجاب.

وهذا هو الموعد الذي حدده الله تعالى لخلقه، فغفل البعض عنه.

وهذا الموقف الذي لم يحسب حسابه الغافلون.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٩٠/٣.

والذي قال الله - تعالى - عنه: ﴿يَوْمَ يَفْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٧: ٣٤).

هنا يتقدم الملك الذي يحمل سجل حياته، ويقول:

﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ حاضر مهيباً، ومعد لا يحتاج إلى تهيئة، أو إعداد، ولا يذكر السياق شيئاً عن مراجعة هذا السجل، إنما يذكر مباشرة النطق العلوي الكريم للملكين الحافظين، السائق والشهيد: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (ق، ٢٤ - ٢٦).

وهذه الأوصاف الكثيرة التي وصف بها يستحق عليها العقاب الكبير؛ لأنه معتدٍ ومريب، وأشرك مع الله غيره، فكانت جهنم مثواه ومسكنه، كلما نضجت جلودهم بدَّهم الله جلوداً غيرها ... ولا يكون هناك خصام، ولا جدال، ولا دفاع.



## المبحث السادس

### تسليية النبي وأمره بالطاعة

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (آية ٣٩، ٤٠).

قال ابن العربي: في هذه الآية، خمس مسائل:

**المسألة الأولى:** في الصحيح، عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال: كنا جلوسا ليلة مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر، ليلة أربع عشرة، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾»<sup>(١)</sup>.

**المسألة الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: هو تسبيح الله في الليل.

الثاني: أنها صلاة الليل.

الثالث: إنها ركعتا الفجر.

الرابع: أنها صلاة العشاء الأخيرة.

**المسألة الثالثة:**

قول من قال: إنه التسبيح، يعضده الحديث الصحيح: «من تعار من الليل فقال: لا

إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله،

---

(١) صحيح البخاري، ح رقم (٥٥٤).

وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: اللهم اغفر لي -  
أو دعا - استجيب، فإن توضأ قبلت صلاته»<sup>(١)</sup>.

وأما من قال: صلاة الليل، فإن الصلاة تسمى تسبيحًا؛ لما فيها من تسبيح الله، ومنه  
سُبْحَةَ الضحى.

وأما من قال: إنها صلاة الفجر والعشاء؛ فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه.

#### المسألة الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه النوافل.

الآخر: أنه دَكَّرَ الله بعد الصلاة، وهو الأقوى في النظر، في الحديث أن النبي ﷺ كان  
يقول في دبر المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل  
شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»<sup>(٢)</sup>.

المسألة الخامسة: ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قرأ في الصبح «ق»، فلما انتهى إلى

قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ رفع بها صوته<sup>(٣)</sup>.

وثبت أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سأل أبا واقد الليثي، ماذا كان يقرأ به

رسول الله ﷺ في الفطر والأضحى؟ فقال: كان يقرأ بـ: «ق، والقرآن المجيد»، و«اقتربت

الساعة»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) صحيح البخاري، ح رقم (١١٥٤).

(٢) صحيح البخاري، ح رقم (٦٣٣٠).

(٣) مستدرک الحاكم ٤٦٤/٢.

(٤) صحيح مسلم، ح رقم (٨٩١)، وانظر أحكام القرآن ص ١٧٢٧ - ١٧٢٨.

وقد تضمن القرآن الكريم تسليية للرسول ﷺ وتسرية عنه، وتثبيت له، وإشعاراً بأن الله معه ينصره، ويذهب عنه الحزن، قال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾. (الضحى: ١ - ٥).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ١-٦). ويقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٢٨).

وقد اقترن ذلك بوعد الله بالنصر، حيث يقول: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٢١).

فإن الإيمان بوعد الله ونصره أعظم ما يذهب الحزن عن المؤمنين الصادقين حين يواجهون البلاء والابتلاء، فيصبرون أملاً في ثواب الله ونصره.

## المبحث السابع

### وعد المؤمنين بنعيم الآخرة

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (سورة ق: الآيات ٣١ - ٣٥).

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ﴾.

يقول الطاهر بن عاشور:

«جاء ترتيب الآيات في منتهى الإعجاز، فبدأت بذكر إكرامهم بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثم بذكر أن الجنة جزاؤهم الذي وُعدوا به فهي حق لهم، ثم أومأت إلى أن ذلك لأجل أعمالهم بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾... إلخ، ثم ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾، ثم طمأنهم بأن ذلك نعيم خالد، وزيد في إكرامهم بأن لهم ما يشاءون، ما لم يروه حين الدخول، وبأن الله وعدهم بالمزيد من لدنه»<sup>(١)</sup>.

ويقول سيد قطب: «التكريم في كل كلمة، وفي كل حركة، فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء: «غير بعيد»! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾... فيوصفون هذه الصفة من الملاء الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله، أو ابون، حفيظون، يخشون الرحمن، ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون.

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٦/٣٢١.

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خروج: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾.  
ثم يؤذن في الملا الأعلى تنويهاً بشأن القوم، وإعلاناً بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾... فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم، فالمزيد من ربهم غير محدود<sup>(١)</sup>.

و﴿وَأُزْلِفَتِ﴾، معناه: قُرِبَتْ، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد وبيان أن هذا التقريب هو في المسافة؛ لأن «قُرِبَتْ» كان يحتمل أن يكون المعنى: بالوعد، والإخبار، فرفع الاحتمال بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ يحتمل أن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة: هذا هو الذي كنتم توعدون به في الدنيا، ويحتمل أن يكون المعنى أنه خطاب لأمة محمد ﷺ أي: هذا هو الذي توعدون به أيها الناس، لكل أبواب حفيظ، و«الأواب»: الرجاء إلى الطاعة، وإلى مرشد نفسه، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - وعطاء - رحمه الله -: «الأواب المسبح»، وقال الشعبي، ومجاهد: «هو الذي يذكر ذنوبه فيستغفر»، وقال المحاسبي: «هو الرجاع بقلبه إلى الله تعالى»، وقال عبيد بن عمير: «كنا نتحدث أن الذي إذا قام من مجلسه، استغفر الله - تعالى - ممّا جرى في ذلك المجلس»، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل، و«الحفيظ» لأوامر الله تعالى، فيمثلها، ولنواهيه فيتركها، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: «حفيظ لذنوبه حتى يرجع عنها».

---

(١) في ظلال القرآن ص ٣٣٦٥.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، يحتمل أن يكون من نعت: «الأواب» أو بدلا من كل، ويحتمل أن يكون رفعا بالابتداء، والخبر: يقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾، وقوله تعالى: «بالغيب» معناه: غير مشاهد له، إنما يصدق رسوله ﷺ ويسمع كتابه، وجاء أن معناه: «يوم القيامة»، و«المنيب»: الراجع إلى الخير، والمائل إليه، وقوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْحُلُودِ﴾ مقابل لقوله - تعالى - من قبل في أمر الكفار: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا﴾، خبر بأنهم يعطون آماهم أجمع، ثم أجهم تعالى الزيادة، التي عنده للمؤمنين المنعمين، وكذلك هي مبهمة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وقد فسّر ذلك الحديث الصحيح في قوله ﷺ: (يقول الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»)، بله ما اطلعت عليه، وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد، أحاديث مطولة، وروى عن جابر بن عبد الله، وأنس - رضي الله عنهم - أن المزيد: «النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير المحرر الوجيز ١٣/٥٦٣ - ٥٦٥.

## المبحث الثامن

### التذكير بالقرآن

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

ثناء من الله - عز وجل - للمؤمنين، بأنهم يتذكرون بالقرآن، على نسق قوله تعالى، في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (آية: ١٨)، فالله - تعالى - ذكر في هذه الآية الكريمة: أن إنذاره ﷻ محصور في الذين يخشون ربه بالغيب، وأقاموا الصلاة، وهذا الحصر الإضافي؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار، كأنه هو والذي لم ينذر سواء، بجامع عدم النفع في كل منهما، وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله - تعالى - كقوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ (يس: الآيتان ١١-١٠)، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ (النازعات: آية ٤٥) ويشبهه معنى ذلك في الجملة، قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (سورة ق: آية ٤٥)<sup>(١)</sup>.

ويقول سيد قطب: قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾، القرآن يهز القلوب ويزلزلها، فلا يثبت له قلب، يعي ويخاف ما يواجهه به من حقائق، ترجف لها القلوب، وعلى ذلك النحو العجيب، وحين تعرض مثل هذه السورة، فإنها لا تحتاج إلى جبار، يلوي الأعناق على الإيمان، ففيها من القوة والسلطان، ما لا يملكه الجبارون، وفيها من الإيقاعات على القلب البشري ما هو أشد من سياط الجبارين!<sup>(٢)</sup>.

إن القرآن الكريم، هو ذكر رب العالمين، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ (الأنبياء: الآية ٥٠).

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٦/٦٤٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣٣٦٧.

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٦٩).

وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (ص: آية ٣٨).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجرات: ٩).

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ (النحل: ١٨).

وسمى القرآن ذكراً؛ لأن التذكير يكون به، فأعظم التذكير يكون بالقرآن الكريم، يقول

تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر: ١٧).

وقد أمر الله أنبياءه أن يذكروا الناس جميعاً، أو يذكروا أقوامهم بالقرآن، قال تعالى:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ (ق: آية ٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ (الأنعام: ٧٠) أي: بالقرآن، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ

الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ (الطور: ٢٩).

وقد حصر المولى مهمة الرسول ﷺ في التذكير، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ

(٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢) وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٧٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: ٥٦).

والناس في سماعهم للذكر صنفان: صنف يعرض عن ذكر الله، وصنف يقبل على ذكر

الله، ويستمع إليه، ويهتدي به.

وقد بين الله لرسوله ﷺ أن يكون إنذاره لمن اتبع الذكر، وخشي الرحمن، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يس: ١١).



وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد ١٦).

وقد وصف الله المؤمنين بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (النور: ٣٦، ٣٧).

فالمؤمنون يتذكرون بالقرآن، ويهتدون به، و يخشون عذاب ربهم، وتطمئن قلوبهم بذكر الله، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

أما الكافرون بذكر الله، فإن الله تعالى يقول عنهم: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٢).

وقد توعد الله الكافرين بذكر - بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الزمر: ٢٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (الجن: ١٧).

ومن هنا نعلم أن التذكير بالقرآن باب واسع يتضمن أن القرآن ما هو إلا ذكر للعالمين، وأن الله أنزل الذكر، وهو الحافظ لهذا الذكر، وأنه أنزل الذكر لأنبيائه؛ ليبينوا للناس ما ينفعهم وما يضرهم، وأن الناس في مواجهة ما أنزل إليه من ذكر، إما مصدق له يهتدي به، يخشى الرحمن، يخاف وعيده، وينتظر الأجر والثواب والمغفرة منه - تعالى - ، وإما كافر بالذكر، معرض عنه، وهؤلاء لهم عذاب أليم.

## الفهرست

.....	المدخل
.....	المبحث الأول: تمجيد القرآن
.....	المبحث الثاني: تكذيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه من البشر
.....	المبحث الثالث: إثبات البعث
.....	المبحث الرابع: في خلق السماوات والأرض وما فيه من إعجاز
.....	المبحث الخامس: في الكلام على الموت وسكراته وعلى الملائكة المراقبين حركات الإنسان وسكناته، وفي أحوال يوم القيامة
.....	المبحث السادس: تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمره بالطاعة
.....	المبحث السابع: وعد المؤمنين بنعيم الآخرة
.....	المبحث الثامن: التذكير بالقرآن